

الباب الثالث: في الاستدلال بخلقة الإنسان على وجود الصانع الحكيم سبحانه وتعالى

وفيه فصول:

الفصل الأول: في الحكمة في خلق الإنسان

اعلم أن هذه المناظرة التي شرحها الله تعالى في قوله ﷻ: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: 30] .. إلى آخر الآية. واعلم أنه تعالى لم يذكر في هذه الآية وجه الحكمة على التفصيل في تخليق الإنسان ولم يزد عليهم قوله تعالى: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، وللعلماء في هذا المقام طريقان:

الأول: الطريقة الإجمالية التي ذكرها الله تعالى في هذه الآية وتقريرها إنه جل وعز قادر على جميع المقدورات منزّه عن جميع الحاجات عالم كل المعلومات، وإذا كان الأمر كذلك كان لا محالة عالماً بأنه ما الذي ينبغي فعله وما الذي ينبغي تركه فكان عالماً لا محالة بكونه غنياً عن كل شيء ومن كان غنياً مما ينبغي وما لا ينبغي كان عالماً بكونها غنياً، وإذا كان الأمر كذلك امتنع إقدامه على ما لا ينبغي وإذا كان الأمر كذلك ثبت أن كل ما يفعله الله ﷻ حكمة وصواب وأنه منزّه عن فعل العبث كما قال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا﴾ [المؤمنون: 115]، ومنزه عن فعل اللعب كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لِلْعَيْبِ﴾ (٢٨) مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ [الدخان: 38-39]، ومنزه عن فعل الباطل كما قال: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَطُلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [ص: 27]، بل كل ما فعله إنما فعله بالحق وللحق كما قال: ﴿وَمَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ [الدخان: 39]، وله المُلْكُ والمُلْكُ بالحق كما قال: ﴿ثُمَّ رُدُّوْا إِلَى

اللَّهُ مَوْلَاهُمْ الْحَقُّ ﴿[الأنعام: 62]، ومتى علمنا أَنَّ الأمر كذلك علمنا أَنَّ في تَخْلِيقِ البشر حكماً بالغه وقدرة نافذة وأسراراً عجيبة شريفة لا يعلم أكثرها إلا هو ولكنه تعالى لم يكشف تفاصيلها للبشر كما قال: ﴿مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلَقَ أَنْفُسَهُمْ﴾ [الكهف: 51]، فوجب الإيمان بتلك الحكم على الإجمال وترك الخوض في تفاصيلها.

الطريق الثاني: بيان حكمة خلق الإنسان على التفصيل وفيه وجوه:

الأول: إن المخلوقات على أربعة أقسام:

أحدها: الذي له عقل ولا شهوة له وهم الملائكة، قال تعالى في حقهم: ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ﴾ [التحریم: 6]، وقال أيضاً: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ ﴿٥٠﴾ [النحل: 50].

الثاني: له شهوة ولا عقل له وهو كل حيوانات سوى الإنسان.

الثالث: الذي له شهوة وعقل وهو الإنسان، فإن رجع شهوته عقله التحق بالبهائم بل كان أضل كما قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ [الأعراف: 179]، وإن رجع عقله شهوته التحق بالملائكة بل أفضل لأن الملائكة عليهم السلام معصومون والإنسان مبتلى بالشهوات ولا حول ولا قوة إلا بعصمة الله كما قال تعالى: ﴿وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: 70].

الرابع: الذي لا عقل له ولا شهوة وهي الجمادات.

ثم إنه ﷺ كان في العهد الأقدم والزمان الأسبق خلق الأقسام الثلاثة وبقي القسم الرابع وهو الذي يحصل فيه العقل والشهوة معاً فاقتضت قدرته التامة ومشيتته الكاملة خلق هذا القسم الرابع كي لا يبقى شيء من الأقسام الممكنة محروماً عن جود إيجاده ونعمة إبداعه فعند هذا قال للملائكة:

﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ فقالت الملائكة: إنك إذا جمعت بين الشهوة والغضب والعقل والحلم جاءت المنازعة فتولد الفساد من الشهوة ويولد سفك الدماء من الغضب فقال مدبر العالم المحيط علمه بجميع الكائنات والمجريات: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ فيحتمل والله أعلم بمراده أن يحصل من تخليقهم وتكوينهم كمال حكمتي ورحمتي وقدرتي ويحصل منه أيضاً كمال حالهم ودرجتهم، أما كمال قدرتي فلأن لا

يبقى هذا القسم محروماً عن أثر الجود وأما كمال حكمتي فلائه وإن كان الفساد والقتل يحصلان كثيراً أن الأكثر عدمهما وحصول العبودية والتذلل وترك الخير الكثير لأجل الشر القليل شر كبير وهو غير لائق بحكمتي. وأما كمال حالتهم ودرجاتهم فهو أن العمل بمقتضى العقل عند عدم الشهوة ليس في غاية الكمال إنما الكمال العمل بمقتضى العقل مع قيام منازع الشهوة كما في حق البشر، ويحتمل في ظنوننا أن المراد بقوله تعالى: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ هو هذا المعنى والله أعلم بأسرار كلامه.

القسم الثاني للمخلوقات: اعلم أن مخلوقات الله تعالى بحسب التقسيم العقلي على ثلاثة أقسام فإنها إما أن تكون أرواحاً قدسية نورانية ربانية بلا جسد، وإما أن تكون أجساداً بلا أرواح وإما أن تكون مركبة من الأرواح والأجساد، أما القسم الأول فهم الملائكة عليهم السلام.

ولهذا السر سمّاهم الله في القرآن روحاً. قال في سورة البقرة في صفة عيسى ابن مريم: ﴿وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ [البقرة: 87]، و﴿نَزَّلَ بِهِ الرُّوحَ الْأَمِينُ﴾ [الشعراء: 193] وقال في سورة مريم ^{عَلَيْهَا السَّلَامُ}: ﴿فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾ [مريم: 17]، وقال في سورة النبا: ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا﴾ [النبا: 38]، سمى آثارهم في أرواح البشر روحاً فقال: ﴿يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةُ بِالرُّوحِ﴾ [النحل: 2]، وقال: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ [الشورى: 52].

وأما القسم الثاني التي تكون أجساداً بلا روح فهي الحيوانات والنبات والمعادن، فإن قيل: للحيوان روح فلم أدخلتها تحت قسم الأجساد؟ قلنا: مرادنا من الروح الأرواح اللطيفة التي تقوى على إدراك المعقولات والمجردات وليس لسائر الحيوانات هذا الروح، ولما دخل في الوجود هذان القسمان ففي القسم الثالث وهو الموجود الذي يحصل من الازدواج بين الأرواح العلوية والأجسام السفلية والازدواج بين النورانية الربانية اللطيفة والأجسام الظلمانية الشهوانية الكثيفة فحصل من ذلك الازدواج الإنسان فجسده من عالم الخلق وروحه من عالم الأمر فلا جرم قال: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ [الأعراف: 54]، وحصل جسده بالتسوية وروحه بالنفخ فقال: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾ [الحجر: 29]، وكان جسده من فطرة هذا العالم وروحه من فطرة العالم الأعلى فقال في فطرة جسده: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ﴾ [المؤمنون: 12]، إلى تمام المراتب الستة، ثم قال في فطرة روحه في المرتبة

السابعة: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ﴾ [المؤمنون: 14]، وذكر أن جسده من هذا العالم فقال: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ [الكهف: 110]، وإن روحه متوجه إلى ذلك العالم وهو قوله: ﴿يُوحَىٰ إِلَىٰ﴾ وبين أن طاعة الجسد هو الاشتغال بالعبادات، وأن طاعة الروح هو التوكل على رب الأرضين والسموات فقال في آخر سورة هود: ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود: 123]، واعلم أن دلائل كمال القدرة وجلال الحكمة في تخليق هذا النوع أتم وأكمل وبيانه من وجوه:

الحجة الأولى: أن الروح علوي والبدن سفلي، والعلو والسفل ضدان والروح نوراني والبدن ظلماني والنور والظلمة ضدان، والروح لطيف والبدن كثيف واللطافة والكشافة ضدان والروح سمائي والبدن أرضي والسماء والأرض ضدان، والروح رحماني بدليل أنه لا يرغب إلا في معرفة الله ولا يفرح إلا بخدمة الله ولا يميل إلا إلى محبة الله ولا يبتهج إلا بمطالعة أنوار جلال الله ولا يطمئن إلا بذكر الله ولا يستقر إلا على عتبة قدس كبرياء الله، وأما البدن فإنه شيطاني شهواني لأنه لا يغتذى إلا بدردي العالم الجسماني ولا يفرح ولا يقوى إلا بالانغماس في الشهوانيات والظلمانيات، وإذا كان الأمر على هذه الجملة حصل بين الروح والجسد منافاة عظيمة ومباينة تامة فالجمع بينهما يدل على قدرة كاملة وحكمة عالية ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين.

الحجة الثانية: أن الشوق إلى الله تعالى مقام شريف وفيه لذة عجيبة وهذا المقام غير حاصل إلا للبشر واعلم أن هذا الكلام لا يتخلص إلا بتقديم حقيقة الشوق فنقول: إن الشوق لا يتصور إلا إلى شيء أدرك من وجه ولم يدرك من وجه آخر، أما الذي لم يدرك بوجه من الوجوه أصلاً فلا يشتاق إليه فإن من لم ير شخصاً ولم يسمع وصفه لم يتصور أن يشتاق إليه وما أدرك بكماله وتماه لا يشتاق إليه لأن الشوق طلب وطلب الحاضر محال، ثم إن الشوق إلى المحبوب يقع على وجهين:

الأول: أنه إذا رآه ثم غاب عنه بقي في خياله أثر تلك الصورة المحسوسة واشتاق الروح إلى أن ينقل ذلك الأثر من عالم الخيال إلى عالم الحس.

الوجه الثاني: أن يرى وجهه محبوبه ولا يرى شعره ولا سائر محاسنه فيشتاق إلى أن ينكشف له ما لم يره قط.

وإذا عرفت هذا فنقول: هذان الوجهان غير متصورين في حق الملائكة أما

الوجه الأول فلأن ذلك أنما يمكن إذا أدرك ثم غاب ويمتنع في حق الملائكة أن يغيبوا عن شيء عرفوه فكل ما عرفوه فذلك العرفان حاصل لهم أبداً لا يتبدل ذلك العرفان بالغفلة ولا ذلك الحضور بالغيبة وهذا هو المراد بقوله تعالى: ﴿يَسْمِعُونَ أَلِيلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ [الأنبياء: 20].

وبقوله تعالى: ﴿وَمَا مِثَّا إِلَّا لَمْ مَقَامٌ مَعْلُومٌ﴾ [الصفات: 164]، وبقوله ﷺ: «إن من الملائكة صافين لا يركعون وراكعين لا يسجدون وساجدين لا يرفعون» وبالجمله فأحوالهم باقية ومعارفهم دائمة وهم مصنونون عن تغيّر الأحوال وتبدلات المعارف، فإن حصل لهم شوق فذاك يكون من القسم الثاني، أما الإنسان فإن هذين القسمين يمكن وقوعهما له بالنسبة إلى معرفة الله تعالى بل هما لازمان لكل العارفين ضرورة، وأما القسم الأول فإن الذي تجلّى للعارفين من الأمور الإلهية وإن كان في غاية الوضوح والتجلي إلا أنه يكون مسبقاً بشوائب التخيلات فإن الخيالات لا يقصر في هذا العالم من المحاكيات والتمثيلات وهي مكدرات للمعارف وإنما تمام التجلي في الآخرة حيث تزول الخيالات وتبطل التمثيلات فهذا آخر نوعي الشوق وهو استكمال الوضوح فيما اتضح.

القسم الثاني: إن الأمور الإلهية لا نهاية لها وإنما ينكشف لكل عبد من العباد بعضها ويكون الحاضر متناهياً والغائب غير متناهٍ، ولو أن العارفين خلق في أول وقت حدوث العالم ثم سار بأسرع سير في درجات المعارف الإلهية بل طار حول عرش الجلال أشد طيراناً إلى آخر وقت يتخيله الخيال ويستحضره العقل من أواخر أوقات أهل الجنة وأهل النار كان الحاصل من طيرانه وسيره متناهياً، ويكون ما لم يصل هو إليه غير متناهٍ وإذا كان الأمر كذلك ظهر أن القسم الأول من الشوق يزول في الآخرة.

وأما القسم الثاني من الشوق إلى الله تعالى فإنه لا يزول ألبتة بل كلما كان السير أشد وأكثر كان الشوق أكمل وأعظم.

إذا عرفت هذه القاعدة فنقول: كل من بقي على حالة واحدة فإن كانت تلك الحالة موجبة للذة ثم تغيب فعند بقائها واستمرارها لا يبقى لذيذاً وكذا إن كان مؤلماً فعند استمراره لا يبقى مؤلماً بل اللذة والألم لا يحصلان إلا عند الانتقال من أحد الجانبين إلى الجانب الآخر، ولنضرب لها مثلاً من المحسوس فأحوال الخلق بالنسبة إلى الأغذية الطيبة والأطعمة اللذيذة ثلاثة:

الأول: حال الملوك المتنعمين المتوسعين في أكل الأشياء اللذيذة الطيبة ولا يلتذون بها وذلك لأنه لما واطبوا على أكلها اعتادوها فلا يلتذون بها.

القسم الثاني: الفقراء الذين لا يأكلون إلا الأطعمة الخشنة الخبيثة البشعة ولم يتفق لهم ألبنة تناول الأطعمة الطيبة.

القسم الثالث: الذين يأكلون في أكثر الأمر الأطعمة الخشنة البشعة وقد يتفق لهم في بعض الأحوال الأطعمة اللذيذة فهؤلاء إذا وجدوا طعاماً فيه أدنى طيب ولذة يستلذونها في الغاية.

وإذا عرفت هذا فتقول: الملائكة المقربون وإن كانت درجاتهم في العرفان عالية إلا أن تلك الدرجات باقية مستمرة فهم كالملوك المتنعمين، وإن كانوا مواظبين على الاقتداء بأنوار الجلال والاستنشاق من نسيم روح الله إلا أنه لم يتفق لهم فترة في هذه الحالة ولا انتقال عن هذه الدرجة وما وقعوا في ظلمة المعصية وانكسار ظلمات الذنوب.

وأما الحيوانات فحالهم يشبه حال الفقراء المواظبين على الفقر والضر والبؤس والمسكنة والجوع والعري ولم يتفق لهم انتقال من هذه الحال إلى حال طيبة فلا جرم لا يكون لهم ألم من الحالة التي هم فيها.

وأما الإنسان فتارة يقع في ظلمات عالم الأجسام وتارة يتخلص منها إلى أنوار عالم القدس وسبحات سرادقات الجلال فينتقلون تارة من الشدة إلى الرخاء، والأخرى من الرخاء إلى الشدة، فإذا انتقلوا من الشدة إلى الرخاء ومن الابتلاء إلى النعماء بأعظم التذاذهم فلا جرم يحصل هناك من اللذات والسعادات ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، وإذا كانت أسباب هذه الغيبة بعد الحضور والحضور بعد الغيبة متعاقبة على الأرواح البشرية في دار الدنيا حصلت هناك آلام ولذات متعاقبة على الأرواح البشرية في دار الدنيا، واللذة إذا حصلت بحيث يكون قبلها فقدان وبعدها توقع الحرمان كان الالتذاذ بها أشد وأكمل، فهذا النوع من السعادة والبهجة الحاصلة للإنسان غير حاصلة للملائكة المقربين ولا لسائر الحيوانات فيمكن أن يكون المراد من قوله: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ هذه الحالة، وإلى الإشارة بقوله تعالى: ﴿وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ﴾ [الاحزاب: 72]، فقوله: ﴿وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ﴾ أي: تجلّى أنوار عالم

القدس في روح الإنسان وقوله: ﴿إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ إشارة إلى طوفان ظلمات النفس الجسمانية والموانع الشهوانية النفسانية.

الحجة الثالثة: أن بتخليق الملائكة ظهرت القدرة والحكمة وذلك لأن كمال قوتهم يدل على كمال قدرة خالقهم، وكمال عصمتهم يدل على كمال قدس خالقهم، أما بتخليق البشر ظهر كمال الجود وكمال الرحمة، أما كمال الجود فلأنه لا مناسبة بين التراب وبين جلال رب الأرباب، ثم إنه برحمته وكرمه جعله مركز المحبة ومعدن المعرفة كما قال: ﴿يُؤْتِيهِمْ وَيُخَوِّتُهُمْ﴾ وأما كمال الرحمة فلأنه مع كثرة معاصيه أظهر فيه أنواعه من العجائب فأودع في قلبه نور عرفان جلاله وأجرى على لسانه ذكر توحيدهِ وجعل عينيه محلاً لأبصار دلائله وأذنه محلاً لسماع كلامه، فالملائكة عليهم السلام [ظهرت بهم القدرة والحكمة]⁽¹⁾ والبشر بهم ظهر الجود والرحمة.

الوجه الرابع: أن الملائكة عليهم السلام خلقوا من الأنوار أما آثار التركيب في البشر أكثر وذلك لأنه تعالى خلق الإنسان من جوهرين: الروح والبدن وأظهره من اثنين الأم والأب وركبه من شيئين من المنى والدم، وجعل له مطيتين الليل والنهار، وغذاه بغذاءين الطعام والشراب، وأعد له دارين الجنة والنار كل ذلك ليتحقق صدق قوله تعالى: ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾ [الذاريات: 49].

الوجه الخامس: أن العبد يعلم ربه بالقدس والعظمة وصفات الجلال والإكرام مع أنه أبعد الأشياء مشابهة له ومشاكله ثم إنه لا يعلم روحه ونفسه مع أنه هو هو كما قال: ﴿قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: 85]، ليعلم العبد أن كل ذلك بسبب مدد التوفيق والإرشاد لا بسبب الجد والاجتهاد.

القسم الثالث: للموجودات بحسب القسمة أربعة:

أحدها: موجود لا أول له ولا آخر وهو الحق ﷻ.

الثاني: موجود له أول وآخر وهو الدنيا.

الثالث: موجود له أول ولا آخر له وهو العبد في الآخرة.

(1) في الأصل: ظهرت القدرة بهم الحكمة.

وأما القسم الرابع: وهو الذي لا أول له وله آخر وهذا محال لما ثبت في علم الأصول أنَّ ما ثبت قدمه استحال عليه [العدم]⁽¹⁾، إذا عرفت هذا فنقول: أيها العبد لك أول ولا آخر لك وكذلك الآخرة لها أول ولا آخر⁽²⁾ لها فانظر أنك كفؤ للدينا وكفؤ للآخرة، فإذا نظرت لا يخفى عليك أنك كفؤ الآخرة فلما كان الأمر كذلك فالحق ﷻ خلق الملائكة للبقاء أبد الآباد في الآخرة وخلقك أيضاً للبقاء كذلك أبد الآباد في الآخرة، إلا أن إظهار القدرة والرحمة في خلقك للبقاء أتم من إظهارها بسبب خلق الملائكة وذلك لأنها ذوات نورانية مُبرّاة عن الإسقام والإعلال والأمراض، فلعله يخطر ببال أحد أن بقاءها إنما كان لكونها صافية نورانية ثم إنه تعالى أزال هذه الخيالات بأن خلقك من أكثف الأشياء وأشدّها⁽³⁾ ظلمة وهو التراب وجعلك محلاً للإسقام والإعلال ومنزل الآفات والأمراض ثم جعلك في البقاء الأبدي كفؤاً للملائكة المقرّبين ليظهر للخلق أن البقاء لا يحصل إلا بإيجاده وإبداعه.

واعلم أنك قد عرفت أن الدنيا لها أول وآخر وأنها تنقضي ولا تبقى ألبتة، وكما أن من صفتها أنها لا تبقى ألبتة فكذلك من صفتها أن الإنسان كلما كان أشد قبضاً للدنيا وإمساكاً كان فوات الدنيا عنه أكبر، والدليل عليه أنه تعالى شبه الدنيا بالماء فقال جل وعلا: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أُنْزِلَتْهُ مِنَ السَّمَاءِ﴾ [يونس: 24]، والماء إذا اغترفت منه بقي في يدك فأما إذا قبضت يدك على الماء لم يبق⁽⁴⁾ شيء، فكلمة كان ذلك القبض أشد كان بقاء الماء⁽⁵⁾ في الكف أقل وكذلك الدنيا مهما أخذتها بالحرص فربما حصلت، فأما إذا قبضت عليها بمخالب حرصك فأنت وخرجت عن يدك.

فإن قيل: أفترى⁽⁶⁾ أن البخيل الذي يمسك المال يكثر ماله والسخي الذي ينفق المال يقل ماله؟

قلنا: هذا خطأ لأن الذي يظن أنه بقي عليه ماله ليس كذلك لأنه يموت فيؤخذ

(1) زيادة على الأصل: يقتضيها السياق.

(2) في الأصل: ولا آخرة.

(3) زيادة يقتضيها السياق.

(4) زيادة يقتضيها السياق.

(5) في الأصل: كان عدم بقاء الماء.

(6) في الأصل: افترى.

ذلك المال من غير حمد ولا أجر ولا يبقى عليه إلا الخسار والذي ينفقه في سبيل الله يبقى كل ذلك في خزانة رحمة الله كما قال تعالى: ﴿مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ﴾ [النحل: 96].

القسم الرابع للمخلوقات: اعلم أنها على ثلاثة أقسام:

إما كاملة لا يتطرق إليها النقصانات وهم أصحاب العالم العلوي أجسادهم السموات وأرواحهم الملائكة.

وإما ناقصة لا يتطرق إليها الكمال وهي الحيوانات والنباتات والمعادن. وبقي في التقسيم قسم يليهما⁽¹⁾ وهم الذين يكونون تارة كاملين وتارة يصيرون ناقصين وإذا صاروا في حد الكمال كانوا فوق العرش جالسين مع الملائكة المقربين في حضرة رب العالمين معتكفين على عتبة عز الله مواظبين على ذكر جلال الله متفكرين في معارج آلاء الله متوكلين على رحمة الله مشغولين بخدمة الله مستغرقين في محبة الله محترقين في تنور عظمة الله. وتارة ينزلون إلى حد النقصان ومقام الشهوة والغضب، أما في مقام الشهوة فتارة يكونون كالخنزير [إذا]⁽²⁾ منع ثم أرسل على النجاسات وتارة كالذباب الذي كلما دُبَّ آبَ إلى قاذورات. وأما في الغضب فتارة يكونون كالكلب العقور وتارة كالجمل الصؤول وثالثاً كالنار المحرقة والسيول المغرقة والبحار المغرقة فهو مع كونه شخصاً واحداً يصدق عليه أنه ملك نوراني وشيطان ظلماني وخنزير حريص وحمار صبور وكلب نابح وثعلب رواغ وفاسق خبيث وملك كريم ولا شك أن تركيب شخص واحد يظهر منه هذه الآثار المتناقضة والأحوال المبينة أدل على كمال القدرة وأظهر في إظهار الحكمة فلهذا السبب - والله أعلم - قال ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

واعلم أن الإنسان الموصوف بهذه الصفات بعث إلى هذه الدنيا ليكون مسافراً، قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ؑ: «الناس سفر والدنيا دار ممر لا دار مقر» وبطن أمه مبدأ سفره والآخرة مقصده وزمن حياته مقدار مسافته وسنوه منازلته وشهوره فراسخه وأيامه أمياله وأنفاسه خطاه إلى أجله وُسار به السفينة براكبها فقد

(1) في الأصل: يليه.

(2) [إذا منع] في الأصل: كالخنزير أمتع.

دعي إلى دار السلام كما قال تعالى: ﴿لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ [الأنعام: 127]، وقال: ﴿وَاللَّهُ يَدْعُوًا إِلَى دَارِ السَّلَامِ﴾ [يونس: 25]، ثم إن دار السلام أشرف البقاع وأعز المواضع قال تعالى: ﴿جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ [البقرة: 25]، وقال: ﴿وَجَنَّاتٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: 133]، لكن الطريق إلى دار السلام مظلم جداً فهو برحمته يهدي إليه وبفضله يرشد إليه وبإحسانه يدعو إليه وبكرمه يسهل المشي إليه وبجوده يعفو عن الذنوب ويتجاوز عن السيئات فلهذا المعنى قال: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ فهذا تمام الكلام في حكمة خلق الإنسان، وبالله التوفيق.

الفصل الثاني: في شرح فضيلة الإنسان

قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: 70].

اعلم أن هذه الآية مشتملة على أربعة أنواع من التشريفات:

النوع الأول: قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ وفيه مباحث:

البحث الأول: اعلم أنه ﷺ بنى أمرك على الأول والوسط والنهاية على الكرم واعترف العدو بذلك ثم بين الحق كرامتك ثم شبهك في ذلك بالملائكة المقربين:

أما أنه بنى أول أمرك على الكرم فهو قوله تعالى: ﴿أَقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ① خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ② أَقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ③﴾ فهذه الآية أول آية أنزلها الله تعالى على الرسول ﷺ وقوله تعالى: ﴿أَقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ④ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ⑤﴾ إشارة إلى أول وجودك فثبت أن أول آية أنزلها الله تعالى على نبيه محمد ﷺ إنما أنزلها لبيان كرمه وجوده في أول أحوال خلقتك وإيجادك، وفيه دققة وهي أن أول أمرك غير مبني على كونك كريماً بل على كونك أكرم الموجودات لأنه قال: ﴿أَقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ⑥﴾.

وتأكد هذا الكلام الذي ذكرناه بما يروى أن آدم عليه السلام لما عطس قالت الملائكة له: قل: الحمد لله، فقال: الحمد لله تعالى. [فقال] ⁽¹⁾ تعالى: يرحمك الله، ولذلك خلقتك.

وأما أنه بنى وسط أمرك على الكرم فهو قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ ⑦﴾. وأما أنه بنى خاتمة أمرك على الكرم فهو قوله تعالى يوم القيامة عند عجزك وشدة

(1) زيادة يقتضيها السياق.

خوفك وعدم قدرتك على تمهيد الاعتذار. ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾ [الانفطار: 6]، قال بعض المفسرين: هذا تلقين للجواب والمقصود أن العبد يقول: يا رب غرني بك غاية كرمك وحلمك. فلما كان أول هذا الأمر وأوسطه وآخره مبنياً على الكرم ظهر أن العبد لا يضيع في بحار كرمه ولا يخيب مع كثرة نعمه، وأما أنه حيث اعترف العدو بذلك فلأن إبليس وهو أعدى الأعداء قد اعترف بذلك حيث قال: ﴿أَرَأَيْتَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ﴾ [الإسراء: 62].

أما أنه تعالى بين نهاية كرامتك فهو قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقَنُّكُمْ﴾ [الحجرات: 13]، وأما أنه شبهك بالملائكة في هذه الصفة فلأنه تعالى وصف الملائكة بالكرم فقال في صفة جبريل عليه السلام: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ [الحاقة: 40]، وقال في صفة يوسف عليه السلام: ﴿مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ [يوسف: 31]، وقال في صفة الملائكة عليهم السلام الذين كانوا ضيف إبراهيم عليه السلام فقال تعالى: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكَ حَدِيثَ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ﴾ [الذاريات: 24] وقال تعالى في صفة جميع الملائكة: ﴿بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ﴾ [الأنبياء: 26].

ثم هاهنا حقيقة وهي أنه تعالى قال في بيان صفة الملائكة: (أنهم مكرمون) من غير التشديد وقال في حق البشر: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ [الإسراء: 70]، ذكره مع التشديد والمقصود من هذا التشديد بيان تكثير الكرامات في حق التشديد، وقال أبو يزيد البسطامي رحمه الله: إن أنواع كرامات الله في حق البشر غير متناهية ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿وَإِنْ تَعَدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا﴾ [إبراهيم: 34]، فهذا على سبيل الإجمال وأما على سبيل التفصيل فمن وجوه:

الأول: أنه يمطر كل ساعة على المتوكلين مطر الكفاية دليله قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق: 3]، وكل مؤمن فهو متوكل على الله بدليل قوله تعالى: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ حَسِبَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ [التوبة: 129]، وقال عن الصحابة رضي الله عنهم أنهم قالوا: ﴿حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ [آل عمران: 173]، قال تعالى: ﴿فَأَنقَلِبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ﴾ [آل عمران: 174]، ومنها أنه يمطر كل ساعة على المطيعين مطر المودة، قال تعالى: ﴿سَيَجْعَلُ لَّكُمْ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾ [مريم: 96].

ومنها: أنه يمطر على المجتهدين مطر الهداية، قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت: 69].

ومنها: أنه يمطر على الشاكرين مطر الزيادة قال تعالى: ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: 7].

ومنها: أنه يمطر على المتذكرين مطر الهداية والبصيرة قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: 201]، والاستقصاء في هذا الباب خارج عن وسع البر وكل داخل تحت قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾.

البحث الثاني: في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا﴾.

اعلم أن عطية الله تعالى لها أسماء كثيرة في القرآن:

أحدها: الفضل، قال الله تعالى: ﴿قُلْ يَفْضَلُ اللَّهُ وَرَحْمَتُهُ فِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا﴾ [يونس: 58]، أي: ينبغي أن يكون فرحكم بفضل الله. عليكم بالإيمان لا بأعمالكم وهذا هو مذهب أهل السنة والجماعة فإنهم يقولون: العبد وإن أطاع ربه بأعظم الطاعات من أول خلق العالم إلى قيام الساعة فإنه لا يدخل الجنة إلا بفضل الله ورحمته، ولا يكون للعبد على ربه دين ولا حق ومما يدل على صحة هذا المعنى وجوه:

الأول: أن هذا العبد وإن أطاع فربما وجد من صحبه عبداً كان أذكى منه وأكثر صدقاً وعلماً منه، ومع أنه وقع في الكفر فإذا كان كذلك فكل أحد من هذين العبدین، أعني المطيع والعاصي والمؤمن والكافر والمقر والمنكر، يصح أن يصدر من كل واحد منهما كل واحد من هذين العاملين فهذا المطيع اختار الطاعة مع أنه يجوز منه أن يختار المعصية بدلاً عن الطاعة فيما أن يقال: حصل هذا الرجحان من غير المرجح وهو [إمّا]⁽¹⁾ أن يفضي إلى نفي الصانع أو يوقف على مرجح وذلك المرجح إن كان من العبد عاد الطلب الأول ويفضي إلى التسلسل وإن كان من الله فحينئذ يكون صدور تلك الطاعة من الله تعالى في حقه نعمة وإذا كان صدور الطاعة من العبد عين نعمة الله على العبد فكيف يستحق العبد بنعمة الله عليه في الدنيا نعمة أخرى منه في العقبى فهذا برهان أوضح من ضوء الشمس على أن (كل ما)⁽²⁾ يحصل فإنه إنما يحصل بفضل الله وبرحمته فلهذا قال تعالى: ﴿قُلْ يَفْضَلُ اللَّهُ وَرَحْمَتُهُ فِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا﴾.

(1) زيادة يقتضيها السياق.

(2) (كل ما) في الأصل: (كلّا).

الحجة الثانية: وهو أن العبد إلى أن يصير بحيث يقدر على أن يأتي بالطاعة ويحترز عن المعصية فقد سبق من الله عليه نعمة كما قال تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ [البقرة: 28]، فهو الذي خلقه بعد أن كان معدوماً محضاً كما قال تعالى: ﴿وَقَدْ خَلَقْنَاكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا﴾ [مریم: 9]، ثم خلقه من التراب كما قال تعالى: ﴿وَمِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ﴾ ثم رده في أطوار الخلقة وأكوان الفطرة ثم نفخ فيه الروح وخلق فيه الحياة كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ﴾ ثم أعطاه القدرة كما قال تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً﴾ [الروم: 54]، ثم أعطاه العقل والعلم كما قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا﴾ [النحل: 78]، ثم أعطاه الصورة الحسنة كما قال تعالى: ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ﴾ [غافر: 64]، ثم أعطاه الأغذية والأرزاق كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ﴾ [الروم: 40]، ثم إنه تعالى بعد هذه النعمة العظيمة الدنيوية أنعم عليه بالنعمة العظيمة الدينية وهو بعث الرسل صلوات الله عليهم وإنزال الكتب وإزالة الختم والرق والرین والقساوة من قلبه وأعطاه التوفيق والهداية والعصمة، ثم إن هذا العبد بعد هذه النعم العظيمة أتى بطاعات قليلة مزجاة غير صافية كما يليق بقدرته القاصرة وعقله الناقص المختصر بحكم العقل بوقوع هذه الطاعات اليسيرة المخلطة قضاء لحق تلك النعمة العظيمة المتقدمة، وإذا وقعت هذه الطاعات قضاء لتلك النعم السابقة امتنع صيرورتها موجبة لنعمة أخرى وإذا كان الأمر كذلك علمنا أن دخول الجنة يكون بمحض فضله ورحمته.

الحجة الثالثة: أنه يمكن أن يصير فعل العبد علة لاستحقاق الثواب على الله تعالى، إلا أن فرح العبد بما يعطيه الله بفضله وإحسانه يجب أن يكون أعظم من فرحه بما يجده من كسبه واجتهاده. ومثاله أن وجد بكسبه ديناراً ووجد من تشريف الملك العظيم خلقة نفيسة على سبيل الإعزاز فإن فرح كل عاقل بما حصل من تشريف الملك يكون أتم وأكمل من ذلك القليل الذي حصله بكسبه، فإذا كان الأمر كذلك في السلطان المجازي والملك المختصر فما ظنك بتشريف سلطان السلاطين على سبيل الحقيقة في إعطاء الملك الأبدي فلهذا قال: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا﴾.

الحجة الرابعة: أنه تعالى جعل اشتغال العبد بالطاعة مبدأ للخيرات وجعل إعانة الله له على تلك الطاعات غاية السعادات، ألا ترى أنه قال أولاً: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ ثم قال: ﴿وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ وقال أولاً: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت: 24].

[69]، وفي هذه الدلائل كثرة ومقصودنا هاهنا إقامة هذه الدلائل القاطعة على صحة قوله تعالى: ﴿قُلْ يُفَضِّلُ اللَّهُ وَرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا﴾.

الاسم الثاني: من أسماء عطية الله تعالى: المنة، قال الله تعالى: ﴿بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَيْكُمْ لِلْإِيمَانِ﴾ [الحجرات: 17]، وقال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ [آل عمران: 164]، ومن الأسماء الواردة في الحديث: "الحنان المنان".

فإن قيل: أليس أنه تعالى نهى رسوله عن المنة فقال: ﴿وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ﴾ [المذثر: 6]، ونهى الله تعالى المتصدق عن المنة، فقال تعالى: ﴿لَا يُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى﴾ [البقرة: 264]، ويبين أن المنة توجب الرياء فقال: ﴿كَأَلَيْذَى يُنْفِقُ مَالَهُ رِثَاءَ النَّاسِ﴾ [البقرة: 264]، وإذا بين أن هذه الخصلة مذمومة فكيف ارتضاها لنفسه؟

الجواب: أنه تعالى إذا أنعم على العبد ثم من عليه بتلك النعمة صار العبد مشغولاً بالمنة وصار غافلاً عن النعمة، والمنة صفة الحق والنعمة من جنس الخلق والاشتغال بصفة الحق أولى من الاشتغال بالخلق.

الاسم الثالث: من أسماء عطية الله تعالى: [الإحسان] قال تعالى: ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾ [الرحمن: 60] وقال يوسف عليه السلام: ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ﴾ [يوسف: 100]، وقال موسى عليه السلام لقارون: ﴿وَأَحْسِنَ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ [القصاص: 77].

الاسم الرابع: اللطيف. قال الله تعالى: ﴿اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ﴾ [الشورى: 19]، ومن لطفه أنه نور قلبك بالهدى وجنبك عن الردى والهوى، وجعلك من أمة المصطفى صلى الله عليه وآله ووعد أن يصونك عن العذاب تحت الثرى، ويحشرك في زمرة أرباب التقى، ويقيك من عذاب السعير واللظى، ويدخلك جنة المأوى ويعطيك الزيادة المذكورة في قوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا لِمَتَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: 26].

الاسم الخامس: الهبة. قال الله تعالى: ﴿يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنِشَاءً وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ﴾ [الشورى: 49].

الاسم السادس: الفتح. قال الله تعالى: ﴿مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا﴾ [فاطر: 2]، وقال: ﴿رَبَّنَا أَفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ﴾ [الأعراف: 89].

الاسم السابع: الإكرام والتكريم كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ [الإسراء: 70]، والتكريم هو جعل الشيء كريماً ولا شك [أن] صيرورة الشيء كريماً إنما يكون بحصول صفات الكمال فيه وحصول تلك الصفات لا يكون إلا بإيجاد الحق وتكوينه فظهر أن التكريم لا يحصل إلا بإكرامه والحسن لا يحصل إلا من جوده وإحسانه.

البحث الثاني: في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾.

اعلم قد اختلف المفسرون في المراد بهذا التكريم وذكروا فيه أقوالاً كثيرة وطريق ضبط القول فيها أن نقول: هذا التكريم إما أن يكون المراد منه أحوالاً موجودة في جسد الإنسان أو أحوالاً موجودة في روحه أو مجموعهما، أما الأحوال الجسدانية فيمكن حمل هذا التكريم على أمور:

النوع الأول: أن يكون المراد [من] ولقد كرّمنا بني آدم الصور الحسنة والذي يدل على أن الصورة الحسنة من جملة نعم الله تعالى على العبد [وهي من] وجوه:

الحجة الأولى: قوله تعالى: ﴿وَصَوَّرَكُمُ فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ﴾. [غافر: 64]

الحجة الثانية: قوله تعالى: ﴿صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً﴾ [البقرة: 138].

اعلم أن الصبغة ما يُصبغ [بها] الثياب يقال: صبغ الثوب يصبغه بفتح الباء وضمها وكسرهما ثلاث لغات، صَبْغاً وصَبِغاً بفتح الصاد وكسرهما لغتان، والصبغة فعلة من الصبغ كالجلسة من جلس وهي الحالة التي يقع عليها الصبغ وذكروا في المراد بصبغة الله وجوهاً:

الأول: المراد به تركيبه وصورته وخلقه وفطرته وعلى هذا القول فالآية تدل على كمال حسن صورة الإنسان من وجهين:

أحدهما: أنه تعالى لما أضاف هذه الصبغة إلى نفسه دل ذلك على كمالها كما في قوله تعالى: «بيت الله» و«ناقة الله».

والثاني: أنه قال: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً﴾ [البقرة: 138] وهذا يدل على كمال هذه الصبغة.

الثالث: أن المراد منه دين الله ثم ذكروا في أنه: لِمَ سمي دين الله بصبغة الله وجوهاً:

أحدها: أن بعض النصارى كانوا يغمسون أولادهم في ماء أصفر يسمونهم العمودية ويقولون: هو تطهير لهم فإذا فعل الواحد منهم بولده ذلك قالوا: الآن صار نصرانياً، فقال الله تعالى: اطلبوا صبغة الله وهي الدين والإسلام لا صبغتهم وقيل: السبب في إطلاق الصبغة على الدين طريقة المشاكلة، نظيره قوله تعالى: ﴿فَمَنْ أَعَدَّى عَلَيْكُمْ فَأَعِدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا أَعَدَّى عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: 194]، ﴿وَجَزَّوْا سِنِينَ سَنَتًا بِمِثْلِهَا﴾ [الشورى: 40]، ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزَؤُونَ﴾ [آل عمران: 14-15]، ﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ﴾ [النساء: 142]، ﴿وَمَكُرُوا وَمَكَّرَ اللَّهُ﴾ [آل عمران: 54]، ﴿فَإِنَّا نَسْخَرُهُ مِنْكُمْ كَمَا نَسْخَرُونَ﴾ [هود: 38].

الثاني: أن اليهود يصبغ أبناءها يهوداً والنصارى يصبغ أولادها نصارى يعني يلقنونهم فيصبغونهم بذلك ثم يشربون قلوب أولادهم هذه الأديان، قال ابن الأنباري: يقال: فلان يصبغ فلاناً في الشر أي: يدخله فيه ويلزمه إياه كما يجعل الصبغ لازماً للشوب، وأنشد ثعلب:

دع الشر وأنزل بالنجاة تحرزا إذا أنت لم يصبغك في الشر صابغ

الثالث: أنه سمي الدين صبغة لأن هيئته تظهر بالمشاهدة من أثر الطهارة والصلاة وغيرهما، قال تعالى: ﴿سَيَمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ﴾ [الفتح: 29]، والركوع، قال القاضي عبد الجبار بن أحمد الهمداني: صبغة الله معلق بقوله: «آمنا بالله - إلى قوله: ونحن له مسلمون» فوصف هذا الإيمان الصادر منهم بأنه صبغة الله لتبين أن المباينة بين هذا الدين [الذي] اختاره وبين الدين الذي اختاره المبطل ظاهرة جلية كما تظهر المباينة بين الألوان والأصباغ لدى الحس السليم.

الحجة الثالثة: قوله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين: 4]، اعلم أن التقويم تصيير الشيء على ما ينبغي أن يكون في التأليف والتعديل يقال: قومه تقويماً فاستقام وتقوم، ثم ذكروا وجوهاً في هذا التقويم:

منها: ما نقل عن يحيى بن أكثم وجماعة أنه حسن الصورة، يحكى: أن ملكاً من ملوك زمانه خلى بامرأته في ليلة مقمرة فقال لها: إن لم تكوني أحسن من القمر

فأنت طالق، فأفتى الكل بالحنث إلا يحيى بن أكثم فإنه قال: لا يقع الطلاق فقيلاً له: خالفت شيوخك، فقال: الفتوى بالعلم وقد أفتى من هو أعلم منا وهو الله ﷻ حيث قال: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين:4] وكان بعض الصالحين يقول: إلهنا أعطينا في الأول أحسن الأشكال فأعطينا في الآخرة أحسن الأفعال وهو العفو عن الذنوب والتجاوز عن العيوب.

الحجة الرابعة: أن كل شخص فله حكمان أحدهما من جهة جسمه وهو منظره والآخر من قبل نفسه وهو مخبره، وكثيراً ما يتلازمان ولذلك فترع أصحاب الفراسة من معرفة أحوال النفس أدلة إلى الهيئة البدنية حتى قال بعض الحكماء: قلما توجد صورة حسنة تدبرها نفس رديئة فنقش الخواتيم مفرد من الكنز وطالعة الوجه عنوان باقي النفس قال ﷺ: «اطلبوا الخير من حسان الوجوه»، وقال عمر رضي الله عنه: (إذا بعثتم رسولا فاطلبوا حسن الوجه حسن الاسم). وحكي أن المأمون استعرض جيشاً فمر به رجل قبيح الوجه فاستنطقه فوجده ألكن فأمر إسقاطه وقال: إن الروح إذا وقع أثرها في الظاهر كانت صباحة، وإذا وقع أثرها في الباطن كانت فصاحة وهذا الرجل لا ظاهر له ولا باطن.

الحجة الخامسة: في أن كمال الجسم من الفضائل قوله تعالى: ﴿وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي أَلْعِزِّ وَالْجِسْرِ﴾ [البقرة:247]، واعلم أن حسن الصورة وإن كان مرغوباً فيه إلا أن حسن السيرة أفضل منه، ويدل عليه وجوه:

الحجة الأولى: إن حسن الصورة من مطالب الشهوة، وحسن السيرة من مطالب الحكمة ولا شك أن الحكمة أفضل من الشهوة، وكان حسن السيرة أفضل حالة من حسن الصورة.

الحجة الثانية: أن يوسف صلوات الله وسلامه عليه اجتمع له حسن الصورة وحسن السيرة ثم إنه بسبب حسن الصورة وقع في أنواع من البلاء:

منها: أن أباه كان يحبه أكثر كما أخبر الله تعالى عن إخوته قولهم: ﴿إِذْ قَالُوا لِيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِنْنَا﴾ [يوسف:8]، فلهذا قصدوا قتله كما أخبر الله تعالى حكاية عنهم قولهم: ﴿أَقْتُلُوا يُوسُفَ أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ إِلَيْكُمْ﴾ [يوسف:9].

وثانيها: أنه وقع بسبب الحسن في أسر الرق قال تعالى: ﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ﴾ [يوسف: 20].

وثالثها: أنه وقع بسبب الحسن في زحمة مراودة المرأة قال تعالى: ﴿وَرَوَدَتْهُ الْمَتَىٰ وَفِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ﴾ [يوسف: 23].

ورابعها: أنه وقع في الهم كما أخبر الله تعالى عنه بقوله: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ يَدُوهَا وَلَوْلَا أَن رَّءَا بُرْهَانَ رَبِّهٖ﴾ [يوسف: 24].

وخامسها: أنه وقع في الخوف من زوج تلك المرأة وقال تعالى: ﴿وَأَسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَيْصُومٌ مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [يوسف: 25].

وسادسها: أنهم جعلوه في السجن بسبب هذه الواقعة وبقي هناك مدة طويلة قال تعالى: ﴿فَلَيْتَ فِي السَّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾ [يوسف: 42]، فهذه هي الآفات الحاصلة بسبب حسن الصورة. أما الخيرات الحاصلة بسبب حسن السيرة فوجوه:

أحدها: أنه لما كان عالماً بعلم التعبير خاطبوه خطاب التعظيم واستفتوا منه تعبیر تلك الرؤيا، قال تعالى حكاية عنهم: ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ يِمَانٍ﴾ [يوسف: 46].

وثانيها: أن الملك لما وجد عنده هذا العلم طلبه وأخرجه من السجن قال تعالى: ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ أَتُؤْتِي بِهٖ﴾ [يوسف: 50].

وثالثها: أنه زالت التهمة عنه في ذلك الوقت ببركة العلم قال تعالى: ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ أَتُؤْتِي بِهٖ أَسْتَخْلِصُہٗ لِنَفْسِیْ فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾ [يوسف: 54].

ورابعها: أن الملك اصطفاه لنفسه عند ذلك قال تعالى: ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ أَتُؤْتِي بِهٖ أَسْتَخْلِصُہٗ لِنَفْسِیْ﴾.

وخامسها: أن يوسف عليه السلام توسل إلى ذلك الملك بحسن السيرة لا بحسن الصورة فقال تعالى حكاية عن يوسف عليه السلام: ﴿قَالَ اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: 55].

فثبت بما قلنا أنه وقع في ستة أنواع من البلاء بسبب حسن الصورة ووصل إلى ستة أنواع من الخيرات بسبب حسن السيرة، وذلك يدل على أن حسن السيرة أفضل من حسن الصورة.

الحجة الثالثة: أن النسوة لما رأين يوسف عليه السلام قلن: ﴿حَشَّ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ [يوسف: 31]، حاش لله شبتهن يوسف بالملك وذلك التشبيه كان في حسن السيرة لا في حسن الصورة لأنه عليه السلام دخل مطرقاً رأسه ولم ينظر إلى واحدة منهن مع أنه كان في أول زمن الشباب، حتى أن النسوة مع غاية شهوتهن لم يذكرن منه الصورة بل ذكرن منه السيرة فدلّ على أن حسن السيرة أفضل من حسن الصورة.

الحجة الثالثة: أن حسن الصورة لا يبقى إلا أياماً قلائل أما حسن السيرة فإنه لا يزول أثره ولا تبطل نتيجته فدل هذا على أن حسن السيرة أفضل من حسن الصورة، فهذا جملة الكلام في شرح قول من قال: المراد بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ حسن الصورة وحسن السيرة.

الوجه الثاني: أن المراد من هذا التكريم امتداد القامة وذلك لأن الشيء كلما كان أكثر ارتفاعاً وامتداداً كان أعلى في جنسه، فالشجر كلما كان أكثر ارتفاعاً وامتداداً كان أشرف فلهذا السبب سمى كل من جاوز آحاد جنسه بصفات الشرف فإنه العالي والفائق.

الوجه الثالث: المراد بهذا التكريم: أكرم الإنسان حيث يمكنه من القيام والقعود والاستلقاء والانضجاع. واعلم أنه تعالى خلق الخلق على أربعة أصناف في التركيب:

- منها ما يشبه القائمين: وهي الأشجار والنبات، ومنها ما يشبه الراكعين وهي البهائم.

- ومنها ما يشبه الساجدين: وهي الحشرات التي تدب على بطونها ووجوها.

- ومنها ما يشبه القاعدين: وهي الجبال والتلال.

ثم إنه تعالى أقدر الإنسان على جميع هذه الهيئات وممكنه من أن يذكر الله تعالى

على جميع هذه الأحوال كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾ [آل عمران: 191]، فمن أتى بركة واحدة فقد حصلت في تلك الركعة الواحدة الهيئات الأربع وهي: القيام والركوع والسجود والقيود، فحينئذ يحصل له ثواب هذه الأصناف الأربعة بإقدار الله تعالى الإنسان على جميع هذه الهيئات هو المراد بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ [الإسراء: 70].

الوجه الرابع: في هذا التكريم هو أنه تعالى خلق آدم من جوهر التراب والتراب أنواع من الفضائل:

أحدها: الوصلة، وذلك لأنه تعالى خلق إبليس من النار كما قال تعالى حاكياً عنه: ﴿خَلَقْنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتُهُ مِن طِينٍ﴾ [الأعراف: 12]، والنار سبب القطيعة والتراب سبب الوصلة.

والثاني: أن التراب فيه أمانة، قال تعالى: ﴿فِي كُلِّ سُبُلَةٍ مِّائَةٌ مَّائَةٍ حَبَّةٌ﴾ [البقرة: 261]، وفيه لطيفة، وهي أنه خلقتك من شيء فيه أمانة فاجتهد حتى لا تبدل الأمانة بالخيانة ولأجل كون التراب أميناً قبل آدم الأمانة وهو قوله تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ...﴾، إلى قوله: ﴿وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ﴾ [الأحزاب: 72].

والثالث: أن التراب طاهر وطهور، قال تعالى: ﴿فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا﴾ [النساء: 42]، ثم قال: ﴿وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ﴾ [النور: 26]، فلأجل هذا السر اصطفى الله تعالى آدم فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ﴾ [آل عمران: 33]، ثم اصطفى أبناءه فقال: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ [فاطر: 32]، ثم كرمهم فقال: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾.

والرابع: التواضع والدليل عليه أن آدم عليه السلام لما أتى بالزلة قال في الحال: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا﴾ [الأعراف: 23]، ولما أتى إبليس بالمعصية قال له ربه: لِمَ فعلت؟ قال: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتُهُ مِن طِينٍ﴾ [الأعراف: 12]، فتكبر على الله ورد أمره.

والخامس: الطهارة قال عليه السلام: «التراب طهور والمؤمن والماء أيضاً طهور» (*)

(*) 1- رواه أحمد (5/ 180) وأبو داود (332) والترمذي (124) والنسائي (17/ 1) وابن حبان (301) والحاكم (1/

176-177) من حديث أبي ذر وهو حديث صحيح. ولفظه «وإن الصعيد الطيب طهور [وضوء] المسلم...»

الحديث.

قال تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنْ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا﴾ [الفرقان: 48]، ثم عجن التراب بالماء طاهراً بطاهر وطهوراً بطهور.

واعلم أن النار لا تنطفئ إلا بأحد السببين: التراب والماء فجعل هذا الطين سبباً لانطفاء نار الوسوسة في الدنيا وانطفاء نار جهنم في الآخرة، والله أعلم.

الوجه الخامس: في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ قال ابن عباس: كرمناهم بالأكل بالأصابع بخلاف البهائم فإنها تأكل بالفم، واعلم أن وجه التكریم في هذا المعنى من وجوه:

الأول: أن الرأس محل للعقل والفكر والذهن والأكل غذاء الشهوة والبطن ولا يليق بالحكمة أن يسجد الرأس الذي هو معدن العقل والفكر لأجل الغذاء الذي هو نصيب النفس بل جُعِلَت اليد خادمة حتى أن اليد ترفع اللقمة إلى الفم حتى يخدم العبد سيده، وفيه لطيفة وهي: أنه تعالى أغناك عن أن يخضع رأسك ويسجد لطلب الطعام فلا تخترب بجهلك سجدة لمخلوق لطلب الطعام.

الوجه الثاني في شرح هذه النعمة: أن البهيمة تأخذ علفها بفمها ملطخة ملوثة أما الإنسان فإنه ينظف طعامه بأصابعه ويميز جيده عن رديئه، وهاهنا دقيقة وهي أنه ﷺ علق رعاية مصالح البهائم بطبائعها حتى أنها لطبعها تميز بين مصالحها ومفاسدها، فيحترز وقت تناولها العلف عما يؤذيها ويجذب ما ينفعها وهكذا تكون كل الطيور والبهائم والحشرات من أول الأمر، أما الإنسان فإنه علق رشده بعقله لا بطبعه حتى أن الإنسان قبل ظهور نور العقل فيه لا يميز بين النافع والضار، أما إذا حملنا هذا التكریم على الأرواح الروحانية ففيه وجوه:

الأول: ولقد كرمنا بني آدم بالعقل والفهم.

واعلم أنه ﷺ أقر العقل في كتابه من وجوه:

الأول: بكثرة أسمائه وسيجيء بعد ونذكر هاهنا بعضها:

فالاسم الأول: العقل قال موسى عليه السلام في مناظرته مع فرعون: ﴿رَبِّ الْمَشْرِقِ...﴾، إلى قوله ﴿إِنْ كُنْتُمْ تَقُولُونَ﴾ [الشعراء: 28]، وأوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام: إذا رأيت عاقلاً فكن له خادماً، وقال عليه أفضل السلام: «أول ما خلق الله العقل فقال له: أقبل فأقبل ثم قال: أدبر فأدبر فقال تعالى: وعزتي وجلالي ما خلقت

خلقاً أكرم عليّ منك، بك آخذ وبك أعطي وبك أعاقب»(*)، وقال ﷺ: «لادين لمن لا عقل له»(**). وقال: «لا يعجبنيكم إسلام امرئ حتى تعرفوا كنه عقله»(***)، وقالت الحكماء في تفسير هذا الخبر: من لم يكن عقله أغلب خصال الخير عليه كان حتفه في أغلب خصال الخير عليه. وأيضاً بالعقل قدر الإنسان على القيام بأمر الله في قوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا﴾ [الشمس: 9]، وقدر على تحصيل حرث الآخرة في قوله: ﴿مَنْ كَانَتْ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزَدَ لَمْ فِي حَرْثِهِ﴾ قالوا: ثمرة حرث الآخرة على التفصيل سبعة أشياء: بقاء بلا نفاذ وقدرة بلا عجز وعلم بلا جهل وغنى بلا حاجة وأمن بلا خوف وراحة بلا شغل وعز بلا ذل.

وأيضاً أكثر المفسرين على أن معنى قوله: ﴿اللَّهُ تَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَالْأَرْضُ وَالسَّمَوَاتُ﴾ [النور: 35]، الله هادي أهل السموات والأرض، ومعلوم أن كمال تلك الهداية إنما يحصل بالعقل، وأيضاً العقل نوعان:

غريزي وهو القوة المتهيئة للعلوم الكلية القدسية، فوجود هذه القوة في الطفل كوجود النخل في النواة والسنبلة في الحب.

ومستفاد وهو كمال حال هذه القوة ثم هذا المستفاد ضربان: ضرب يحصل للإنسان حالاً فحالاً بلا اختيار منه ولا يعرف كيف حصل ومن أين حصل.

وضرب يحصل باختياره فيعرف كيف حصل ومن أين حصل، ولما انقسم العقل إلى غريزي ومستفاد قال أمير المؤمنين رضوان الله عليه: العقل عقلان مطبوع

(*) قال ابن القيم في المنار المنيف (ص: 66) تبعاً لشيخه شيخ الإسلام ابن تيمية: أحاديث العقل كلها كذب، ثم ذكر هذا الحديث.

والحديث موضوع بدون شك، انظر الموضوعات (27) للصمغاني، والمقاصد الحسنة (ص: 118) للسخاوي والأسرار المرفوعة (107) لملا علي القاري والفوائد المجموعة (ص: 478 - 477) للشوكاني.

(**) رواه النسائي في الكنى وعنه الدولابي في الكنى (2/ 104) وقال النسائي: باطل منكر. وفي إسناده بشر بن غالب وهو مجهول، وهو آفته كما قال الأزدي وأقره الذهبي في الميزان. ورواه الحارث في مسنده (1/ 327) من حديث جابر.

قال الحافظ: في المطالب العالية (3/ 13) أودع الحارث بن أبي أسامة لداود بن المحبر في مسنده من كتاب العقل له، وهي موضوعة كلها، لا يثبت منها شيء. وانظر سلسلة الضعيفة (1/ 13) وتنزيه الشريعة (1/ 213). (***) رواه ابن عدي في الكامل (1/ 322-323) والعقيلي في الضعفاء (1/ 103) من حديث ابن عمر، وفيه إسحاق ابن أبي فروة وهو متروك.

ومسموع ولا ينفع مسموع إذا لم يكن مطبوع كما لا ينفع الشمس وضوء العين ممنوع، وإلى القسم الأول أشار النبي ﷺ بقوله: «ما خلق الله تعالى خلقاً أكرم عليه من العقل»(*) وإلى الثاني أشار بقوله ﷺ لعلي عليه السلام: «إذا تقرب الناس إلى خالقهم بأثواب البر فتقرب أنت بعقلك تسبقهم بالدرجات والزلفى عند الناس في الدنيا وعند الله في الآخرة»(**).

واعلم أن لفظ العقل في اللغة اسم لما يقيد به البعير به لثلا يند، ويسمى هذا المعنى به تشبيهاً على عاداتهم في تسمية المعقولات باسم المحسوسات تنبيهاً على أنه هو الذي يمنع الإنسان ويكون قيداً له عن الإقدام على ما لا ينبغي من الأفعال.

الاسم الثاني: اللب، قال تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ يَتَأُولَى الْآلَبِ﴾ [البقرة: 179]، وقال: ﴿وَأَتَقُونِ يَتَأُولَى الْآلَبِ﴾ [البقرة: 197]، وقال في سورة الطلاق: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ يَتَأُولَى الْآلَبِ﴾ [الطلاق: 10]، وقال في سورة آل عمران: ﴿لَا يَنْبَغُ لِأُولَى الْآلَبِ﴾ [آل عمران: 190]، واعلم أن اللب من كل شيء هو المقصود الخالص منه وهذا الاسم يدل على أن المقصود من الإنسان إنما هو العقل وكيف لا يكون كذلك وأشرف الأمور الصادرة عن الإنسان أن يعرف الحق لذاته والخير لأجل العمل به، ثم من الظاهر أن معرفة الحق أشرف من عمل الخير ومعرفة الحق لا يمكن إلا بالعقل فدل على أن لب الإنسان هو العقل.

الاسم الثالث: النهي، ويحتمل أن يكون جمع نهيّة وأن يكون اسماً مفرداً وجعل اسماً للعقل والذي ينتهي عن الاشتغال بالمحسوسات وتوجه إلى عالم المعقولات، فلهذا المعنى أجبل أربابه على تدبر معاني أرباب المحسوسات إلى معرفة ما فيه من المعقولات كقوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا...﴾ [طه: 128]، وقال: ﴿لَا يَنْبَغُ لِأُولَى النَّهْيِ﴾ [طه: 128].

الاسم الرابع: الحِجْر، وأصله من الحِجْر أي: المنع وهو أن يحجر الإنسان

(*) قال العراقي في تخريج حديث الإحياء (119/1) أخرجه الترمذي الحكيم في النوادر بسند ضعيف. وفي إسناده جعفر بن الزبير وهو متروك الحديث.

(**) ذكره الغزالي في الإحياء (119/1) بهذا اللفظ، وقال الحافظ العراقي في تخريج أحاديثه: أخرجه أبو نعيم في الحلية من حديث علي «إذا اكتسب الناس من أنواع البر...» الحديث وإسناده ضعيف.

نفسه عن فعل ما لا ينبغي قال تعالى: ﴿هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِّدَىٰ حِجْرِ ۖ﴾ [الفجر: 5].

الاسم الخامس: الحجى من حجاه الشيء إذا قطعه ومنه الأحجية، فكأنه سمي العقل بهذا الاسم لكونه قاطعاً بين الإنسان وبين الأفعال القبيحة.

الاسم السادس: أن العلم ثمرة العقل، ثم إنه تعالى سمي العلم نوراً والجهل ظلمة فقال: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [البقرة: 257]، وسماه أيضاً روحاً في قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَتَيْنَاكَ إِلَيْنَا رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ [الشورى: 52]، وسماه أيضاً حياة والجهل موتاً فقال تعالى: ﴿أَوْ مَن كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَمْ نُورًا يَمْشِي بِهِ﴾ [الأنعام: 122]، وقال تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ﴾ [فاطر: 22]، وأيضاً سماه ماء في قوله: ﴿أَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا﴾ [الرعد: 17]، وإذا كان العلم نتيجة للعقل وحال النتيجة في العلو والشرف كذلك فاعرف أن الأصل كيف يكون؟

النوع الثاني: في بيان فضائل العقل.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِّمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ﴾ [ق: 37]، أي: لمن كان له عقل، فجعل من لا عقل له كأنه لا قلب له ونظيره قوله تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ﴾ [الأنعام: 88 - 89]، وقال: ﴿مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ الْعَلِيمَ وَجَاءَ يَفْقَهُ مَنِيْبٌ﴾ [ق: 33]، والمراد بالقلب في كل هذه الآيات العقل، وأيضاً فقد أثبت الله تعالى للعقل أبصاراً ورؤية أما الأبصار ففي قوله: ﴿وَتَرَبَّصُّوهُمْ يُنظَرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصَرُونَ﴾ [الأعراف: 198]، وأما الرؤية ففي قوله تعالى: ﴿مَا كَذَّبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ﴾ [النجم: 11]، وقال في إبراهيم عليه السلام: ﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمٰوٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأنعام: 75]، وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ﴾ [الفرقان: 45]، وسمى عدم إدراك العقل عمى في آيات:

- منها قوله: ﴿صُمُّ بِكُمْ عُمَىٰ﴾ [البقرة: 18].

- ومنها قوله تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَرُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: 17].

- ومنها: قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا﴾ [الكهف: 101]، فلولاً أن المراد من العين هاهنا البصيرة لا البصر [لما⁽¹⁾] قال: عن ذكري لأن الذكر لا يدرك بحاسة البصر، وكيف لا يكون فقد البصيرة أعظم ضرراً من فقد البصر وقد عرفت أن البدن بمنزلة الفرس والنفس بمنزلة الراكب وضرر عمى الراكب نفسه أشد عليه من عمى فرسه وقال تعالى: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [الأنفال: 22]، وقال أيضاً: ﴿لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [الملك: 10].

فإن قيل: إن كان للعقل هذه الفضائل الكثيرة فلم قال: «أكثر أهل الجنة البله»(*)؟ فالجواب من وجوه:

الأول: المراد بالبله الجاهلون بأمر الدنيا والعالمون بأمور الآخرة كما قال إبراهيم عليه السلام: ﴿إِلَّا مَنْ آتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾.

الثاني: أن من عبد الله للجنة فهو أبله في جنب من يعبد لكونه إلهاً رباً ملكاً.

الثالث: قال الحسن: أكثر أهل الجنة البله أي: هم حشو الجنة كالعامي في البلد.

الرابع: أكثر أهل الجنة البله أي: هم العصاة الذين عفى الله عنهم وأما العقلاء المطيعون فهم أهل الدرجات العلى.

الوجه الثاني: في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ أنه ﷺ خلق كل ما سواه لأجلك فقال في الأرضيات: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة: 29]، وقال في السموات: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [الجاثية: 13]، ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فَرَشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً﴾ [البقرة: 22]، فالأرض فراشاً لنا والسماء سقفاً لنا فقال: ﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا﴾ [الأنبياء: 32]، وجعل كل ما في الأرض رزقاً

(1) [لما] في الاصل [كما].

(*) رواه البزار وابن عدي في الكامل (3/ 1160) من حديث أنس وفي إسناده سلامة بن روح وهو ضعيف لسوء حفظه، وانظر تخريج أحاديث شرح العقيدة الطحاوية (ص: 5754573) للشيخ محمد ناصر الدين الألباني. وكذلك رواه الطحاوي في مشكل الآثار (4/ 121) وغيره.

لنا فقال: ﴿وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ﴾ [البقرة: 22]، و-جعل الشمس ضياء لنا ومؤذناً لصلاتنا فقال تعالى: ﴿فَسَبَّحْنِ اللَّهَ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾ [١٧] وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾ [الزوم: 17-18]، وجعل القمر معروفاً لأوقات صيامنا وحبنا ومواقيت لقضاء ديوننا فقال: ﴿قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ﴾ [البقرة: 189]، وزين السماء بالكواكب لأجلنا فقال تعالى: ﴿إِنَّا زَيْنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةِ الْكَوَكِبِ﴾ [الصفات: 6]، وجعل الكواكب علامات نهدي بها في أسفارنا فقال تعالى: ﴿وَعَلَّمَكُمُ اللَّجِيمَ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [١١] وجعل الشمس متحركة حتى نحن بحركتها نجد القبلة في النهار، وجعل القطب ساكناً حتى نحن بسكونه نجد القبلة في الليل، وخلق الأنعام لغذائك وثيابك فقال تعالى: ﴿وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنْفَعٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ [النحل: 5]، وسخر لنا الخيل والبغال والحمير فقال: ﴿وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً﴾ [النحل: 8]، ثم قال: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي: أعددت لكم من المنافع بفضلني ما لا تعلمون، ثم ذكر الرسول ﷺ عن الله تعالى مثله في الجنة فقال تعالى: ﴿أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر﴾ (*)، ثم خلق النبات لأجلنا فقال تعالى: ﴿كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ﴾ ثم قال لنا: أعطيناكم هذه الأشياء قبل السؤال بالفضل منا، قبل الطاعة كرمنا منا فقال تعالى: ﴿وَأَتَيْنَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾ [إبراهيم: 34]، ثم جمع جميع النعم فقال: ﴿وَإِنْ تَعْدُوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصَوْهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [النحل: 18]، وهذه الخاتمة أعظم مما تقدم من النعم وهي أعظمها وأجلها وذلك لأن الإنسان لما لم يشتغل بالشكر لم يشتغل بتعديد نعم الله عليه مهّد برحمته عذره في ترك ذلك الشكر فقال: إنها كثيرة وعقلك لا يقدر على استحضارها على التفصيل وكان هذا الترك للعجز فكنت معذوراً فيه وهو المراد من قوله: ﴿وَإِنْ تَعْدُوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصَوْهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ يعني غفور يستر عيبك في الدنيا ورحيم يتجاوز عن تقصيرك في الآخرة، وقال في سورة إبراهيم: ﴿وَإِنْ تَعْدُوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصَوْهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم: 34]، وهذا إشارة إلى أن القدر الذي تقدر عليه من الشكر فإنه لا تفعله وتتغافل عنه.

(*) رواه البخاري: (3244 و4779 و4780 و7498) ومسلم (2824) والترمذي (3195) وابن ماجه (4328) من حديث أبي هريرة وهو حديث قديسي.

الوجه الثالث: في تفسير قوله: ﴿كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ [الإسراء: 70]، أنه اتخذ قلبه لمعرفة ومحبته ولسانه لشهادته، وبدنه لخدمته ثم في القيامة يعطيه كل ما يتمنى ويزيد إلى أن يقول: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقْنَا وَعَدُومُ﴾ [الزمر: 74].

الوجه الرابع: جعل أبانا آدم رسولاً إلى الملائكة حيث قال تعالى: ﴿يَقَادُمُ إِلَيْنَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ﴾ ثم جعلهم سجدوا له حيث قال: ﴿أَسْجُدُوا لِآدَمَ﴾ ثم لعن إبليس لأجل مخالفته فقال له: ﴿فَأَخْرِجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾ ﴿٢٤﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ﴾ [الحجر: 34-35]، ثم أباح لهم جميع ما في الجنة إلا شجرة واحدة فقال تعالى: ﴿وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ﴾ [البقرة: 35]، ثم لما وقع في الزلة تاب عليه فتاب قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَجْنِبْهُ رَبُّهُ فَقَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى﴾ [طه: 122]، فالحمد لله رب العالمين عدد نعمه وعدد كل شيء حمداً لا ينفد ولا ينقطع أبد الآبدين ودهر الداهرين.

ثم أكرمه بالاصطفاء فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا﴾ ثم خصّه بالاجتماع من بعد العصيان فقال: ﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى﴾ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ أَجْنِبْهُ رَبُّهُ فَقَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى﴾ [طه: 121-122]، ومعلوم أن إكرام الأب سبب لإكرام الابن.

الوجه الخامس: أنه جعل فيهم الأنبياء والرسل والأبرار، كما قال موسى عليه السلام: ﴿يَنْقُومُ أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا﴾ [المائدة: 20].

الوجه السادس: أنه تعالى أكرمنا بالخط الحسن فقال تعالى: ﴿عَلَّمَ بِالْقَلَمِ﴾ وقيل: بالصوت الحسن وقيل بالخلق الحسن فقال تعالى: ﴿يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ﴾ [فاطر: 1].

الوجه السابع: أنه تعالى أكرمنا بالفصاحة والبلاغة فقال تعالى: ﴿وَأُخْلِفَ إِلَيْنَا كَلِمَةً وَأَلْوَنُكُمْ﴾ [الروم: 22]، وقال عليه السلام: «إن من البيان لسحراً» (*) وقال الحكماء: المرؤ بأصغريه قلبه ولسانه.

الوجه الثامن: أنه تعالى أكرمنا بالأطعمة الصافية اللذيذة كالسمن والعسل، أما السمن فقال فيه: ﴿مِنْ بَيْنِ قَرْنٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ﴾ [النحل: 66]، وأما العسل

(*) - رواه البخاري: في الأدب المفرد (873) وأبو داود (5011) وأحمد (1/ 269 و 273 و 309 و 313 و 327 و 332) من حديث ابن عباس وهو حديث صحيح.

فقال فيه: ﴿يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَنُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ﴾ [النحل: 69]، وكذا الزبد والسكر ثم إنه تعالى أباح لنا الأكل فقال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾ [الأعراف: 32]، ثم من كرمه أنه أعطى هذه الأغذية اللطيفة ثم أوقع في القلب إشارتها على الغير عند الحاجة إليها كما قال تعالى: ﴿وَيُؤْتُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: 9]، حتى يجدونها في القيامة أحسن وأكمل كما قال: ﴿مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ﴾ [النحل: 96]، وعصمنا من حال من قال في صفته: ﴿أَذْهَبَتْ طَبِيبَتُكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا﴾ [الأحقاف: 20].

الوجه التاسع: أكرمنا بالأمر والنهي وتشريف التكليف ألا ترى أنه لما كان ولد الإنسان عليه أعز من عبده لا جرم تكون تكاليفه على ولده أكثر مما على عبده.

الوجه العاشر: قال علي بن أبي طالب عليه السلام: ولقد كرمنا بني آدم أي: بالدعوة إلى الجنة قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلَى دَارِ السَّلَامِ﴾ [يونس: 25]، فأكرمكم بالدعوة إلى الدار ووعد لنا الملك الجبار كما قال تعالى: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا لِحُسْنٍ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: 26].

الوجه الحادي عشر: أنه تعالى خلق الخلق أصنافاً مختلفة ثم خصَّ الحيوان بمزيد الفضل والشرف وذلك لأنه لو خلق العرش والسموات والشمس والقمر ولم يخلق حيواناً ألبته لكان الكل عبثاً، لأنه سبحانه منزّه عن النفع والضرر وليس هناك حيوان ينتفع به ألبته وكان خلق هذه الأشياء خالياً عن الحكمة، أما لو خلق العرش وخلق بعوضة وقال: خلقت العرش لتنتفع به هذه البعوضة خرج التخليق عن أن يكون عبثاً ودخل في أن يكون حكمة فثبت بهذا أن العرش يمكن جعله تبعاً للبعوضة ولا يمكن جعل البعوضة تبعاً للعرش فلهذا المعنى قال: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أََمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ﴾ [البقرة: 28]، ثم فضل آدميين على كل الحيوانات كما قال: ﴿وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: 70]، ثم فضل الذكور على النساء فقال: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ﴾ [النساء: 34]، ثم فضل المؤمن على الكافر فقال: ﴿وَيُنْزِلُ الْمُؤْمِنِينَ إِنْ هُمْ مِنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا﴾ [الأحزاب: 47]، ثم فضل العلماء والمجاهدين، أما العلماء فقال: ﴿يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ [المجادلة: 11]، وقال في المجاهدين: ﴿وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: 95]، ثم فضل الأنبياء فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَءَالَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران: 33]، ثم فضل أولي العزم من الرسل فقال تعالى: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا

صَبَرَ أَوَّلُوا الْعَزِيمَ مِنَ الرُّسُلِ [الأحقاف: 35]، ثم فضل الله منهم أربعة على الباقين وهم الخليل والكليم وعيسى الروح والحبیب محمد ﷺ فقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ﴾ [الإسراء: 55]، ثم فضل محمد ﷺ على الكل فقال: ﴿وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء: 113]، فتكريمك أن جعلك مؤمناً برأ تقياً عارفاً بربك مجاهداً في طاعة ربك ثم جعلك على ملة إبراهيم ودين محمد عليهما الصلاة والسلام.

الوجه الثاني: في تفسير هذا التكريم أنه أكرمنا بالتقوى فقال: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقَنُّكُمْ﴾ [الحجرات: 13] وكان الرسول ﷺ أتقى البشر بقوله تعالى: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ﴾ [النجم: 3]، ثم أبو بكر رضي الله عنه وأرضاه كان أتقى الأمة قال تعالى في حقه: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتَقَى﴾ (٧) الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى (٨) وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى (٩) إِلَّا أَتْقَاءَ وَجِوَرِيهِ الْأَعْلَى (١٠) وَلَسَوْفَ يَرْضَى (١١) [الليل: 17، 21]، رضي الله عنه. والجنة للمتقين معدة قال تعالى في صفة الجنة: ﴿أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ فالحمد لله الذي جعلنا من أمة أتقى الأنبياء وهو محمد ﷺ ومن محبي أكرم الأتقياء وهو أبو بكر.

البحث الرابع: في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ فإن قال قائل أنكم فسرتم هذا التكريم بهذه الوجوه، إلا أن فيه أشكالا وهو أن بني آدم فيهم المؤمنون وفيهم الكافرون فكيف تليق هذه التشريفات بالكافرين؟ والجواب من وجوه:

الأول: فيه تنبيه على دقيقة لطيفة وهو أن من ليس بمؤمن فكأنه ليس من الأحياء بل ليس من الموجودات.

الثاني: ولقد كرمنا بني آدم معناه ولقد كرمنا من بني آدم كقوله تعالى: ﴿وَأَخْنَزُوا مِثْرًا قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا﴾ [الأعراف: 155]،

الثالث: أن تفسير التكريم بالأحوال التي يشترك فيها المؤمن والكافر وهي الصورة الحسنة والقَد المستقيم والأغذية اللطيفة وكون جميع المخلوقات مخلوقة لنا، وتخص خواص أهل الإيمان بهم وعند هذا نقول: التكريم عام في حق الكل والاصطفاء خاص ألا ترى أنه تعالى قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران: 33]، وقال الله: ﴿يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ﴾ [الحج: 75]، وقال في حق موسى: ﴿إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ﴾ [الأعراف: 144]، وقال في حق الأمة: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ [فاطر: 32].

الوجه الرابع: في الجواب: أنه تعالى عم المؤمن والكافر في تسعة أشياء: الخلق والرزق والأقدار وإرسال الرسل وإنزال الكتب والأمر والنهي والترغيب والترهيب، ثم خص المؤمن بسبعة أشياء:

إحداها: الهداية قال تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [القصص: 56].

وثانيها: المحبة والزينة ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات: 7].

وثالثها: التيسير ﴿فَسَيِّرُ الْبَشَرِ﴾ [الليل: 7].

ورابعها: التوفيق ﴿مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ [الكهف: 39]، وقال: ﴿وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ﴾.

وخامسها: كراهة الكفر ﴿وَكَرِهَ إِلَيْكُمْ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ﴾ [الحجرات: 7].

وسادسها: القبول ﴿إِنَّمَا يَقْبَلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: 27].

وسابعها: المغفرة ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونُ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: 48]، فهذا جملة الكلام في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ فالحمد لله كثيراً.

النوع الثاني: من التشريفات المذكورة في هذه الآية قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ والمعنى: أعطيناهم المراكب، أما في البر فهي الخيل والبغال والحمير لأجل ركوبنا والجمال لأجل ركوبنا وحمل أمتعتنا كما قال تعالى: ﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّا تَكُونُوا بِلَفِيهِ إِلَّا إِيَّاشِقَ الْأَنْفُسِ﴾ [النحل: 7]، وأما في البحر فهي السفن والزوارق، وفيه نكتة وهي أن الدنيا سجن المؤمن ودار البلاء ثم إنه في الدنيا أعطى أنواع المركبات والآخرة دار الرحمة والإحسان فكيف يترك العبد في القيامة بغير مركوب فلهذا قال: ﴿يَوْمَ نَخْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الْرَحْمَنِ وَفْدًا﴾ [مريم: 85]، أي: راكبين على الجنائب والنجائب، وقال الصادق: البر هو النفس والبحر هو القلب فمن حمله في النفس فقد أكرم بنور التدبير ومن حمله في القلب فقد أكرمه بنور التأييد، وقال

بعضهم: وحملناهم في البر والبحر أي: تكفلنا تحصيل مصالحهم في جميع الأحوال.

النوع الثالث: من التشريفات في هذه الآية المذكورة قوله تعالى: ﴿وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ أي: أطعمناهم الأطعمة اللذيذة كالسمن والعسل والزبد والسكر وما رزقناهم شيئاً من الخبيث والأذى ولم يكلفهم ما لا يطيقونه، وذلك لأن الجن يأكلون العظام ودوابهم يأكلون الروث والبهائم يعلفن التبن والعشب، والطيور تلتقط الحب، والسباع تأكل الجيف أما أغذية بني آدم فهي لطيفة نقية. أيها المسكين إنه ما أطعمك إلا الطيبات فلا تتناول لسوء اختيارك الخمر ولحم الميتة كما قال: ﴿أَيَحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا﴾ [الحجرات: 12]، وقال بعضهم: ورزقناهم من الطيبات أي تارة مطبوخاً وتارة غير مطبوخ، وأما سائر الحيوانات فغير مطبوخ أصلاً وقيل: رزقناهم من الطيبات: المعرفة والمناجاة، كما قال ﷺ: «أبيت عند ربي يطعمني ويسقيني» (*).

النوع الرابع: من التشريفات في هذه الآية. قال: ﴿وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: 70]، والكلام على هذه الآية يتعلق بمسألة تفضيل الملك على البشر، وسيجيء هذه المسألة بالاستقصاء إن شاء الله تعالى وبالله التوفيق.

قال كعب الأحبار رحمته الله: الخلق ثلاثة أصناف: الملائكة ولهم عقول بلا شهوة، والبهائم ولها شهوة بلا عقل، وبنو آدم ولهم كلاهما فمن كانت شهوته راجحة على عقله فهو أخس من البهائم كما قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ كَالْأَفْئِدَةِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْفَافِقُونَ﴾ [الأعراف: 179]، فعلى هذا القياس من كان عقله راجحاً على شهوته وجب أن يكون أفضل من الملائكة وأيضاً فهذه المراتب الأربع بمجموعها غير مذكورة لأحد غير بني آدم وهذا يدل على أنهم أفضل.

واعلم أن قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ فيه تشريف عظيم وذلك لأن التكريم عبارة عن جعل الشيء كريماً والكريم هو الذي يكون منشأ الكرم، وهذا تنبيه على أنه تعالى جعل بني آدم مدبراً للحيوانات ومصلحاً لأحوالها وضابطاً لأموالها على الوجه الأصح الأليق فيصير معناه كونه خليفة الله تعالى في الأرض كما قال جل وعز:

(*) رواه البخاري ومسلم وغيرهما من حديث عبد الله بن عمر. ومن حديث أنس بن مالك وأبي هريرة ورواه من حديث عائشة ورواه البخاري وأبو داود من حديث أبي سعيد، وانظر جامع الأصول (6/379-382) بالفاظ مختلفة.

﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ ثم قال في المرتبة الثانية: ﴿وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ وفيه إشارة [إلى إعلاء درجاته وتعظيم مقاماته]⁽¹⁾ والتحقيق فيه هو أن الإنسان كأنه جالس على الحد المشترك الذي هو آخر مراتب العالم الأرضي وأول مراتب عالم السموات فنسبته إلى الأرضيات بالفعل والترتيب ونسبته إلى السموات بالانفعال والقبول (فقوله تعالى)⁽²⁾: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ إشارة إلى كونه متصرفاً في السفليات وقوله: ﴿وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ إشارة إلى فيضان نور السموات عليه ثم قوله تعالى: ﴿وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ إشارة إلى التربية الواصلة إليه من عالم الغيب إما إلى نفسه وروحه فبالعلم والحكمة والعصمة والتسديد، وإما إلى جسده وقالبه فبالأغذية الموافقة وأما قوله تعالى: ﴿وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ فهو إشارة إلى دققة عجيبة وذلك أن الملائكة أرواح عقلية محضة مطهرة عن علائق الحس والخيال والشهوة والغضب والحيوانات أجساد محضة لا جزء لها من عالم المعقول وعتبات العصمة، وأما الإنسان فهو مستجمع للمنزلتين ومستحضر للدرجتين فهو مع الملائكة ملك ومع السباع سبع ومع البهائم بهيمة ومع الشياطين شيطان فكونه مستجمعاً لكل هذه الأحوال يصلح أن يكون مراداً من قوله تعالى: ﴿وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ والله تعالى أعلم بأسرار كلامه .

(1) (إلى أعلاء درجاته) في الأصل : إلى أعلى درجاته .

(2) (فقوله تعالى) في الأصل : «كقوله تعالى» .

الفصل الثالث: في بيان أول الآباء هو آدم عليه السلام

اعلم ان أول المخلوقات على قسمين:

منهم من كان من جملة المكلفين ومنهم من لم يكن كذلك.

وأجمع العقلاء على أن المكلف أفضل ممن لا يكون مكلفاً وكيف لا يكون كذلك وقد قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِي﴾ [الذاريات: 56]، وهذا نص صريح في أن المقصود من الخلق، إنما هو التكليف وإذا كان كذلك فكلما بقي من الخلق من يكون قائماً بعهدة التكليف بقي عالم الخلق فإذا لم يبق أحد يقوم بأداء التكليف صار عالم المخلوقات عبثاً والحكيم لا يرضى بالعبث وحينئذ تخرب السموات والأرضون وتقوم القيامة. فإذا تأملت هذا علمت أن قيام السموات والأرضين والجبال والبحار ودوران الشمس والقمر والنجوم كلها كالكفيل على قيام ذلك الشخص الأشعث الأغبر الذي ترده الخلق ولا يقبله أحد من الناس وهو قائم بأداء تكليفات الله فهو قائم بأداء التكليف ومشتغل بأداء العبودية والسموات والشمس والقمر والنجوم والعناصر والمواليد باقية تبعاً لبقائه. فجملة ملوك الأرض إنما يأكلون من فئات سفرته وإنما يشربون من بقية ماء في زكوته وهذا هو المراد من قوله ﷺ: «إن الله عباداً في العالم هم السبب الأصلي في مصالح أهل العالم فيهم يمطرون وبهم يرزقون وفي كل جنس واحد هو أكملهم وأجلهم ولهم أصحاب يقربون منه فذلك الأكمل الأقوى في القيام بعهدة أوامر الله وهو المسمى بقطب الأرض والذين يقربون منه ولكنهم بعدما وصلوا إليه فهم أصحابه» (*).

إذا عرفت هذا فنقول: أصناف المكلفين أربعة: الملائكة والجن والإنس والشياطين:

(*) لم نره في المراجع التي بحوزتنا وعلامة الوضع عليه ظاهرة.

أما الملائكة فقد روي في الأخبار: إن الله تعالى خلقهم من الريح وهذا الخبر متأكد بوجوه عقلية:

أحدها: أنهم قدروا على الطيران على أسرع الوجوه.

ثانيها: أنهم قدروا على حمل العرش وذلك لأن الريح صاعدة بالطبع يستقل بحمل الأشياء.

ثالثها: أنهم سمّوا روحانيين واشتقاق الروحاني من الريح، وروي في بعض الأخبار أنهم خلقوا من النور، ثم هذه الرواية تأكدت بوجوه عقلية:

أحدها: أنها صفت من الكدورات وأخلصت في طاعة رب الأرض والسموات.

ثانيها: أنها توغلت بقوة نورانيتها في بحار عرفان جلال الله.

ثالثها: أنهم بسبب تلك النورانية تبرؤوا عن المعاصي والذنوب، وعند هذا قال بعض العلماء: الأولى أن نجمع بين الروايتين فنقول: أبدانهم من الريح وأرواحهم من النور فهؤلاء هم سكان عالم السموات.

أما الشياطين فهم كفرة، وأما إبليس فكفره ظاهر لأنه تعالى قال: ﴿وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ وأما سائر الشياطين فهم أيضاً كفرة بدليل قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَيْكَ أَوْلِيَاءَهُمْ لِيَجْذِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: 121]، ثم إنهم بأسرهم أعداء للبشر بدليل قوله تعالى في صفة إبليس - نعوذ بالله منه -: ﴿فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا﴾ [الكهف: 50].

وقوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ﴾ [الأنعام: 112]، أما الجن فمنهم كافر ومنهم مسلم بدليل قوله تعالى حكاية عنهم: ﴿وَأَنَّا مِنَ الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا﴾ [الجن: 14]، فهذا هو الكلام في تفصيل أحوال هذه الأجناس الثلاثة، أما الجنس الرابع وهو الإنسان والبشر فلا شك أن منهم مؤمن ومنهم كافر، وأما أصلهم فمن شخص واحد وهو أول الآباء والذي يدل على وجوب انتهاء هذه الأشخاص البشرية إلى شخص واحد هو أول الآباء وجوه:

الحجة الأولى: أنه لو وجد إنسان في الأزل فذلك الإنسان إما أن يقال: أنه كان مسبوقاً بإنسان آخر قبله أو لم يكن مسبوقاً بإنسان آخر، فإن كان مسبوقاً فالأزلي مسبوق بغيره وهذا محال لأن الأزل عبارة عن نفي المسبوقية والجمع بين المسبوقية واللامسبوقية محال، وإن لم يكن مسبوقاً بإنسان آخر فذلك الإنسان هو الإنسان الأول فالآباء متتهية إلى الأب وهو المطلوب.

الحجة الثانية: أن الإنسان لا ينفك عن تغير الحالات وتبدل الصفات وتنقل الصفات لكن تغير الحالات في الأزل محال، وهذا يقتضي أنه لم يوجد أحد من البشر في الأزل وإذا كان كذلك وجب القول بانتهاء الناس إلى الإنسان الأول.

الحجة الثالثة: لو لم يكن للآباء مبدأ (لتوقف)⁽¹⁾ حصول الواحد منا على انقضاء آباء لا نهاية لهم، لكن انقضاء ما لا نهاية له محال والموقوف على المحال محال فكان ينبغي أن لا يوجد هذا الولد وحيث وجد الذين انقضوا لهم مبدأ وأول.

الحجة الرابعة: لو حصل شيء من الناس في الأزل لما فني لأن الأزلي لا يقبل العدم.

الحجة الخامسة: إن الذين وجدوا فيما قبل لو لم يكن لهم مبدأ لكانت أعدادهم غير متناهية، ولو كان كذلك لامتنع الانقضاء عليها لأن انقضاء ما لا نهاية له محال.

الحجة السادسة: إن كل عدد داخل في الوجود فهو قابل للزيادة والنقصان وكل ما كان كذلك فهو متناهٍ وكل ما دخل في الوجود فهو متناه.

الحجة السابعة: مجموع الآباء الذين لا نهاية لهم من الإنسان والآباء الذين لا نهاية لهم من هذه النشأة أكثر عدداً من كل واحد من هاتين الجملتين وحدها، فيكون كل واحد من الجملتين وحده أقل من هاتين الجملتين وحدها فيكون كل واحد من الجملتين وحده أقل من المجموع وأقل من غيره متناهٍ، والمجموع ضعف المتناهي فيكون الكل متناهياً.

(1) (لتوقف) في الأصل: (التوقف).

الحجة الثامنة: كل عدد موجود فهو إما شفع أو وتر وعلى التقديرين فهو متناه، وكل عدد موجود فهو متناه فثبت بهذه البراهين وجوب انتهاء الآباء إلى الأب الأول.

فإن قيل: أننا لم نشاهد إنساناً تكون إلا من نطفة الأب في رحم الأم وهذا يقتضي أن يكون كل إنسان مسبوقاً بإنسان آخر.

الجواب - وبالله التوفيق -: أن المحققين من الفلاسفة اتفقوا على أنه يمكن حدوث الإنسان بالتولد كما يمكن حدوثه بالتوالد واحتجوا عليه بوجوه:

الحجة الأولى: أن بدن الإنسان إنما يتولد من اجتماع العناصر الأربعة وإذا كان كذلك وجب أن يكون المحدث لبدن الإنسان هو الله تعالى، أما المقدمة الأولى فالدليل على صحتها أن هذه الأعضاء الحيوانية لو أحرقت لتحصل عنها ماء ورماد وتضاعدت أبخرة كثيرة عنها وذلك يدل على أن هذه الأبدان الحيوانية مؤتلفة من هذه العناصر، وإنما قلنا أنه لما كان الأمر كذلك كان محدثها هو الله ﷻ وذلك لأن لهذه العناصر الأربعة طبائع متضادة متنافرة موجبة للتباين مانعة من الاجتماع، وإذا كان كذلك فهي مع كونها متسارعة إلى التباين لما اجتمعت افتقر اجتماعها إلى جامع وذلك الجامع إما أن يكون (قوة) حالة منها أو شيئاً خارجاً عنها، والأول محال لأن القوة الحالة فيها إما أن يكون حالة في بسائطها أو في الجسم المركب المتولد من امتزاجها والأول باطل لأننا بينّا أن الطبائع الحالة في ذلك البسائط موجبة للتباين والتنافر فلا تكون موجبة لاجتماعها وامتزاجها. والقسم الثاني أيضاً باطل لأن القوة الحاصلة للجسم المتولد عن امتزاجها متقدم عليه تقع لتلك الامتزاجات فتقدم عليها، والمتأخر لا يكون نفس المتقدم فثبت أن الجامع لهذه العناصر لا قوة حالة في بسائطها ولا قوة حالة في الجسم المتولد من امتزاجها، فإذا ذلك الجامع شيء مباين عنها وهو الله تعالى فثبت أن المحدث لهذه الأبدان الحيوانية هو الله ﷻ، وإذا كان كذلك كان قادراً على إحداثها كيف شاء وأراد فيكون قادراً على إحداثها من غير أب وأم وهو المطلوب.

الحجة الثانية: أن الكيفية المزاجية الحاصلة في أبدان الحيوانات إنما تحدث بإيجاد الله تعالى لا لامتزاج هذه العناصر، ومتى كان الأمر كذلك وجب أن يكون الله تعالى قادراً على إيجاد هذه الكيفية الملائمة كيف شاء وأراد من غير واسطة الأب والأم.

وإنما قلنا: أن حدوث هذه الكيفية ليس لامتزاج هذه العناصر وذلك لأن الحار والبارد فإما أن يكون تأثير كل واحد منهما في كسر الآخر معاً أو على التعاقب والأول باطل لأن العلة موجودة مع المعلول وعلة انكسار كل واحد منهما هي قوة الآخر، فلو حصل الانكسار لوجب أن يكون كل واحد منهما قوياً حال كون كل واحد منهما منكسراً وذلك محال والثاني أيضاً محال لأن أحدهما انكسر بالثاني فامتنع أن يصير المغلوب بعد صيرورته مغلوباً غالباً فعلى هذا التقدير لا يكون هذا مزاجاً بل يكون كوناً وفساداً، ولما بطل هذان القسمان ثبت أن حصول هذه الكيفية الملازمة للحياة ليس لأجل امتزاج الطبائع والعناصر بل هي كيفية يخلقها الله تعالى ويحدثها ابتداء وإذا كان الأمر كذلك كان الله قادراً على خلقها كيف شاء وأراد فيكون قادراً على إحداثها في الجسم من غير سبق الأب والأم وهو المطلوب.

الحجة الثالثة: هب أن حدوث تلك الكيفية إنما يكون بسبب امتزاج العناصر واجتماع الطبائع لكنا نقول: إن ذلك المزاج إنما حدث لأنها أجزاء مخصوصة مقدرة اجتمعت واختلطت، فلزم من اجتماعها واختلاطها تأثر بعضها عن البعض ولزم من ذلك التأثير حصول المزاج المخصوص للإنسان ولزم من حصول ذلك المزاج المخصوص حدوث⁽¹⁾ النفس الإنسانية، فإذا مهما حصلت تلك الأجزاء المخصوصة بذلك التصوير المخصوص وحصل اختلاط بعضها بالبعض حدث الإنسان بالتولد لكن حدث في تلك الأجزاء المخصوصة بذلك التصوير المخصوص وحصول اختلاط بعض تلك الأجزاء بالبعض أمر ممكن والمعلق بالممكن ممكن، فحدوث الإنسان (عن)⁽²⁾ سبيل التولد أمر ممكن، فهذه نكتة موجهة جداً على أصول الفلاسفة.

الحجة الرابعة: إن انقطاع النوع أمر ممكن وإذا كان كذلك وجب أن يكون الحدوث على سبيل التولد ممكناً، أما قولنا: أن انقطاع النوع ممكن فلأنه ليس بواجب أن يكون عن كل إنسان إنسان،⁽³⁾ وإذا كان هذا الاحتمال قائماً في الكل فثبت أن انقطاع النوع أمر ممكن وإذا ثبت هذا وجب أن يكون الحدوث على سبيل التولد أمراً

(1) المخصوص حدوث في الأصل: ورد بعد المخصوص هذه العبارة [من ذلك التأثير حصول المزاج] وهي زائدة لا حاجة إليها.

(2) [عن] زيادة يقتضيها السياق.

(3) إنسان في الأصل: إنساناً.

ممكناً إذ لوجب أن لا يقع الانقطاع الذي لا عود له.

الحجة الخامسة: أننا نشاهد حدوث كثير من الحيوانات بالتولد فقد يحدث حيات من الشعير وعقارب من التبن.

والفار متولد من المدر والضفادع متولد من المطر، وجميع هذه الأشياء كما تحدث بالتوالد فهي أيضاً تحدث بالتولد، وليس إذا انقطع هذا التولد فلم يشاهد في سنين كثيرة وجب أن لا يكون له وجود في القدرة عند تشكل قادر يحصل في الفلك لا تتكرر إلى حين.

الحجة السادسة: إن أكثر الناس يتعجبون من تولد الحيوانات من الطين ولا يعجبون من تولدها في الرحم من الماء المهيّن، وهذا أعجب في الحقيقة وذلك لأن الناس يقدرون على تصوير الحيوانات من الطين ومن الخشب ومن الحديد كما هو موجود ولا يمكنهم أن يصوروا حيواناً من الماء لأن الماء جسم سيّال لا تتماسك فيه الصور، فكون هذه الحيوانات في الأرحام من الماء المهيّن أعجب⁽¹⁾ في الحكمة وأعظم في القدرة من تكونها في الطين.

وإن قال قائل: إذا كان الصانع المختار قادراً على خلق الولد من دون الأبوين فلم لم يخلق هذا لتكون الدلالة أقوى.

فالجواب أن الحكمة فيه من وجوه:

الأول: لو خلق البشر من غير هذا الوجه لبطل التعارف بالأنساب وفي بطلانه سقوط المصالح الكثيرة بين الناس في المعاملات وقد نبه الله تعالى عليه فقال جلّ وعز: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾ [الحجرات: 13].

الثاني: لو لم يحصل التوالد لبطلت صلة الرحم وزال تعطف القرابات وبطل تلذذ الآباء بالأبناء وتعزز الأبناء بالآباء، ومنه تزول مصالح كثيرة من العالم، وقد نبه الله تعالى عليه فقال جلّ من قائل: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا﴾ [الفرقان: 54]، فكان معناه - والله أعلم - جعله نسباً لما فيه من المصالح

(1) أعجب في الأصل: له عجب.

اللطيفة وكان قادراً أن يوجده ابتداءً.

الثالث: أن العاقل قد أمر بالتواضع والاجتناب عن الكبرياء، ثم إن العاقل إذا علم أنه خلق من نطفة قدرة وسار في مخرج البول مرة بعد مرة ونشأ في نجاسة يغتذي منها ونبت لحمه وعظمه منها كان كاسر النخوة، وقد نبه الله تعالى على هذا فقال: ﴿فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ﴾ [المرسلات: 23]، فمن علم أن من كان كذلك لم يكن له أن ينكر بل الواجب عليه أن يذل لخالقه ويخضع لربه والله أعلم فثبت بهذا أن أصول الفلسفة شاهد بإمكان هذا المعنى. وأما شهادة الأصول الإسلامية على صحتها فلا شبهة فيها فعلمنا أن الطعن فيه باطل.

إذا ثبت ما ذكرنا فنقول: أن القرآن دل على أن ذلك الأب الأول هو آدم عليه السلام قال سبحانه: ﴿يَأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَجِدَّوْا وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾ [النساء: 1].

واعلم أن في هذه الآية أسراراً عجيبة وذلك لأنه ﷺ افتتح سورتين من كتابه العزيز بهذا اللفظ:

أحدها: أول سورة النساء فقال تعالى: ﴿يَأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿مِنْ نَفْسٍ وَجِدَّوْا﴾ [النساء: 1].

والثانية: سورة الحج فقال: ﴿يَأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ إِنَّكَ زَلْزَلَةً السَّاعَةُ شَاءَ عَظِيمٌ﴾ [الحج: 1] أما السورة الأولى فهي الرابعة من سور النصف الأول من القرآن فإن أولها الفاتحة ثم البقرة ثم آل عمران ثم النساء، وأما سورة الحج فهي أيضاً السورة الرابعة من النصف الثاني فإن أولها سورة مريم ﷺ، ثم طه، ثم الأنبياء ﷺ، ثم الحج، وفي كيفية ترتيب هاتين السورتين عجائب:

أحدها: أن السورة الأولى إشارة إلى حال المبدأ في كيفية التكوين والإيجاد فإنه قال: ﴿اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَجِدَّوْا وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾.

والثاني: إشارة إلى حال المعاد في كيفية الإعدام والإفناء فإنه قال: ﴿إِنَّكَ زَلْزَلَةً السَّاعَةُ شَاءَ عَظِيمٌ﴾ ثم لا شك أن الإيجاد مقدم على الإفناء ولهذا قدمه الله تعالى في الذكر فقال: ﴿تَوَفِّي الْمَلَكَ مَنْ كَسَاءَ وَتَنَزَّعِ الْمَلَكَ وَمَنْ كَسَاءَ﴾ [آل عمران: 26]، فقد ذكر الإبقاء على ذكر التزع فلهذا السبب قدم سورة النساء على سورة الحج.

اللطيفة الثانية: أن الإيجاد يشبه الرحمة والإعدام يشبه الغضب، وقد قال

تعالى: (سبقت رحمتي غضبي)، فلا جرم قدم سورة الإيجاد على سورة الإفناء.

اللطيفة الثالثة: أنه تعالى قال هناك: ﴿الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ ولم يقل في سورة الحج: ربكم الذي أقام زلزلة الساعة، نظيره قوله تعالى: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام: 54]، وقال: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ﴾ [البقرة: 178]، و﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ﴾ [البقرة: 183].

فإن قيل: اسم الربوبية منشأ اللطف والرحمة والكرم فكيف يليق بهذه الكلمة التخويف الشديد الحاصل في قوله تعالى: ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾؟.

قلنا: من تربية المؤدب الرحيم المشفق أن يضرب ولده وأن يهدده حتى يزداد سعيه في طلب المكارم والمعالي، وهذا هو الجواب عن سؤال من سأل عن قوله تعالى: ﴿سَنَفَعُ لَكُمْ أَيُّهُ الثَّقَلَانِ﴾ ﴿فَيَأْتِي آءَاةَ رَبِّكُمَا تَكْذِبَانِ﴾ [الرحمن: 31-32]، فإنه يقال: إن قوله: ﴿سَنَفَعُ لَكُمْ أَيُّهُ الثَّقَلَانِ﴾ غاية التهديد وقوله: ﴿فَيَأْتِي آءَاةَ رَبِّكُمَا تَكْذِبَانِ﴾ إشارة إلى تعديد الآلاء والنعماء فكيف يليق هذا بذلك؟ لأننا نقول: التهديد من الأب المشفق الرحيم في حق الولد الكسلان المغفل يكون من أعظم النعم.

الوجه الثاني: في الجواب أن المرأة ترضع ولدها أولاً سنتين، ثم أنها تلتطخ حلمة ثديها بالصبر والأشياء المرة ثم تضعها في فم الصبي كأنها تقول: إني لا أفطمك بهذه المرارة شحاً عليك وإنما ذلك لغرض آخر وهو أنه خلق لك في الدنيا نعيم لا يحصى ولا يتناهى ولا يتأتى لها إلا بفعل ذلك ولا تنالها إلا بهذه المصّة الواحدة، فتجرع هذه المرارة لتصل بعدها إلى الخيرات الجمّة الكثيرة، فكذا الرب الرحيم سبحانه وتعالى أشفق بعبدته منها بآبائها أعد لك في الجنان ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر لكنك لا تصل إليها إلا بتجرع كأس الصبر عن المحرمات ثم تجرع كأس الموت في هذه الدار ثم يطول حبسك في القبر ما شاء الله ثم ينقلك إلى محفل القيامة ثم ينقلك إلى الجنة فكان الموت وتخريب هذا العالم من أعظم النعم في حقك فلهذا المعنى قال تعالى: ﴿اتَّقُوا رَبَّكُمُ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾.

ومن الآيات الدالة على أن أول الآباء هو آدم عليه السلام قوله تعالى في سورة

الأعراف: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ [الأعراف: 189]، إلا أن فيه أشكالاً وهو أن آخر هذه الآية دل على أن هذه النفس الواحدة أقدمت على الشرك حيث قال تعالى: ﴿فَلَمَّا ءَاتَاهُمَا صَلَاحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا ءَاتَاهُمَا فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الأعراف: 190]، ومعلوم أن الشرك - نعوذ بالله منه - لا يليق بآدم عليه السلام فلا جرم قال المحققون: المراد من هذه النفس الواحدة قصي بن كلاب بن مرة، والشرك الصادر منه هو أنه سمى أولاده بعبد مناف وعبد قصي وعبد الدار، والله أعلم.

الفصل الرابع في كيفية تخليق آدم عليه السلام

اعلم أنه تعالى ذكر في كيفية تخليق آدم ﷺ آيات :

إحدهما: أنه مخلوق من التراب، قال تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقْنَاهُ مِنْ تُرَابٍ﴾ [آل عمران: 59]، وقال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ﴾ [الروم: 20]، وقال في حق أولاد آدم: ﴿وَمِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾ [طه: 55]، وقال في سورة النجم: ﴿هُوَ أَتَعْلَمُ يَوْمَ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ﴾ [النجم: 32]، وقال في سورة نوح ﷺ: ﴿وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا﴾ [نوح: 17 - 18]، واعلم أن في قوله تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقْنَاهُ مِنْ تُرَابٍ﴾ [آل عمران: 59] ثم قال له: ﴿كُنْ فَيَكُونُ﴾ أشكالاً وهو أن ظاهر الآية يقتضي أن قوله: ﴿كُنْ فَيَكُونُ﴾ متأخر عن تخليق آدم وهو محال لأنه لا بد أن يكون قوله كن فيكون متقدماً على وجود آدم في الوجود، والجواب من وجهين:

أحدهما: أن يحمل خلق آدم على خلق بدنه ويحمل قوله: كن فيكون على خلق

روحه.

الوجه الثاني: أن يحمل الخلق على التقدير. وعند هذا يزول الإشكال لأنه يحصل التقدير في علم المقدر⁽¹⁾ أولاً ثم يحصل التخليق والتكوين مفعلاً على ذلك التقدير، والله أعلم.

والآية الثانية: ذكر فيها أنه مخلوق من الماء، قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا﴾ [الفرقان: 54]، وقال تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَّاءٍ﴾

(1) المقدر في الأصل: المقدار.

[النور: 45]، وقال عز وجل: ﴿أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَّاءٍ مَّهِينٍ﴾ [المرسلات: 20]، والآية الثالثة ذكر فيها أنه مخلوق من الطين، قال تعالى: ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ﴾ (٧) ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَّاءٍ مَّهِينٍ﴾ [السجدة: 7 - 8]، وقال عز وجل أيضاً: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَلِيقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ﴾ (٧١) ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ [ص: 71 - 72]، والآية الرابعة ذكر فيها أنه خلقه من سلالة من طين قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ﴾ [المؤمنون: 12].

الآية الخامسة: أنه مخلوق من لازب، قال تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لَازِبٍ﴾ [الصفات: 11].

الآية السادسة: أنه مخلوق من صلصال، قال تعالى: ﴿وَمِنْ صَلْصَلٍ كَالْفَخَّارِ﴾ [الرحمن: 14].

الآية السابعة: أنه مخلوق من صلصال من حمأ مسنون قال تعالى: ﴿إِنِّي خَلِيقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ﴾ [الحجر: 28].

الآية الثامنة: أنه مخلوق من العجل، قال تعالى: ﴿خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ سَأُورِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ﴾ (٢٧) [الأنبياء: 37].

الآية التاسعة: قوله تعالى: ﴿لَا أَقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾ إلى قوله: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ﴾ [البلد: 1 - 4].

الآية العاشرة: قوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً﴾ [الروم: 54].

فهذا مجموع هذه المراتب ولنشرح كل واحدة منها فنقول:

أما المرتبة الأولى: فهي أنه مخلوق من التراب والطين، فاعلم أن إبليس - نعوذ بالله منه - طعن فيه بسبب كونه مخلوقاً من التراب وفضّل نفسه عليه بسبب كونه مخلوقاً من النار والنار قوية تأكل التراب فهذا قال: ﴿خَلَقْنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ [الأعراف: 12]، فكيف يليق أن يسجد القوي للضعيف وقد ذكر العلماء في تفضيل التراب على النار وجوهاً:

الحجة الأولى: أن التراب في غاية التواضع والنار في غاية التكبر، فلما خلق آدم من التراب ظهر منه التواضع والتضرع فقال: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا﴾ [الأعراف: 23]، ولما خلق إبليس من النار ظهر منه التكبر فقال: ﴿قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّمَّنْ خَلَقْتَنِي مِنْ نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ [الأعراف: 12] وقال: نعوذ بالله منه -: ﴿قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ﴾ [الإسراء: 62].

الحجة الثانية: أن التراب وإن كان مظلماً إلا أنه ستار للعيوب، والنار وإن كانت مضيئة إلا أنها تدل على العيوب وتظهر الفضائح.

الحجة الثالثة: أن التراب يطفئ النار فلهذا السبب كان وجود آدم ﷺ سبباً لانطفاء رونق إبليس، وأيضاً فالشهوة والغضب والحرص مخلوقة من النار ألا ترى أن الشهوة لا تعمل في الغذاء إلا بواسطة الحرارة، وأما الغضب فنار ظاهر وأما الحرص فمن النار كذلك⁽¹⁾ وذلك لأن خاصية الحرص أن الإنسان كلما وجد من الدنيا أكثر صار حرصه أعظم كالنار كلما ألقيت فيها الخشب كان اشتعالها أعظم واحتياجه إلى الحطب الكثير أشد فثبت أن الشهوة والغضب والحرص كلها مخلوقة من النار، ثم إن الله تعالى أودع هذه الصفات في ذاتك فلا جرم خلقك من الطين وهو تراب وماء وكل واحد منهما سبب لانطفاء النار فكان المقصود من خلق الإنسان من التراب أن تنطفئ هذه النيران ويبقى الإنسان مصوناً في الدنيا من الخذلان وفي الآخرة عن دركات النيران.

الحجة الرابعة: أنه سبحانه إنما خلق الإنسان لخلافة الأرض كما قال تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ فخلقك من الأرض فإن خليفة الأرض إذا كان مخلوقاً من الأرض كان أرحم بأهل الأرض.

الحجة الخامسة: أراد إظهار القدرة فخلق الشياطين من النار التي هي في غاية الإشراق والضوء ثم ابتلاهم بظلمات الجهالات والضلالات، وخلق الملائكة من الهواء الذي هو أطف وأعطاهم كمال القوة والقدرة، وخلق السموات من أمواج مياه البحر وأبقاها معلقة في الهواء موصوفة بكمال الشدة كما قال في صفتها: ﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا﴾ [الأنبياء: 32] وقال: ﴿وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ﴾ [ق: 6]، وقال: ﴿سَبْعًا شِدَادًا﴾ [النبا: 12]، وخلق آدم من التراب الذي هو أكثف الأشياء وأشدّها ظلمة وأعطاها الطاعة

(1) كذلك في الأصل: وكذلك.

والمحبة والمعرفة، التي هي أنور الأشياء وأضوؤها والمقصود من جميع ذلك إظهار الضد ليكون ذلك برهاناً باهراً وبياناً ظاهراً على أنه هو الخالق من غير احتياج إلى أحد والمقدر والمدير فلا مزاج ولا علاج.

الحجة السادسة: أن التراب سبب الوصلة دليhle قوله تعالى: ﴿أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُبُلَةٍ مِائَةً حَبًّا﴾ [البقرة: 261]، والنار سبب القطيعة ولما كان الأمر كذلك لا جرم حصل لآدم ﷺ شرف الوصلة ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى وحصل لإبليس صفة القطيعة ﴿فَأَخْرَجَ مِنْهَا فِرَّاقًا رَجِيمًا﴾.

الحجة السابعة: التراب فيه أمانة والنار فيها خيانة، أما الأول فلأنك إذا بذرت فيها كفاً من الحنطة ردت عليك جراباً من الحنطة قال تعالى: ﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرِجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ﴾ [الأعراف: 58] الآية، وأما أن في النار خيانة فلأنها تحرق الأشياء وتفنيها، وأيضاً لما كان من التراب لا جرم قبل الأمانة كما قال تعالى: ﴿وَحَمَلَهَا الْإِنْسَنُ﴾ وحفظها على أحسن الوجوه ولما كان في النار خيانة لا جرم أن إبليس عبد ربه سنين ثم خان في تلك العبادة كما أخبر الله عنه بقوله: ﴿وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ [ص: 74].

الحجة الثامنة: أن التراب طاهر وطهور قال ﷺ: «التراب طهور المسلم..» والماء أيضاً طاهر وطهور قال تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنْ أَسْمَاءٍ مَاءً طَهُورًا﴾ وجناب الحق سبحانه وتعالى طيب طاهر قال ﷺ: «إن الله تعالى طيب لا يقبل إلا الطيب»⁽¹⁾ فلما كان التراب والماء طاهرين طيبين لا جرم كان آدم ﷺ لكونه مخلوقاً منهما طاهراً طيباً ولما كان كذلك مخصوصاً من رحمة الله بالمزيد كما قال تعالى: ﴿وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ﴾ [التور: 26].

الحجة التاسعة: رُوي أن نبينا محمداً ﷺ لما دخل المدينة طمع الأغنياء أن ينزل معهم في دورهم وكانوا يأخذون بزمام الناقة ليجذبوها إلى بيوتهم فقال ﷺ: «دعوها فإنها مأمورة» فتركوها فسارت حتى وصلت إلى دار أبي أيوب ﷺ فبركت هناك وما كان سبب ذلك إلا غاية فقر أبي أيوب وشدة انكساره وهذا أيضاً متأكد بقوله ﷺ: حاكياً عن ربه جل جلاله: «أنا عند المنكسرة قلوبهم من أجلي»⁽²⁾.

(1) رواه مسلم (1015) وغيره من حديث أبي هريرة.

(2) رواه البيهقي في دلائل النبوة 2/ 509 من حديث عبد الله بن زيد.

إذا عرفت هذا فنقول: التراب أعظم المخلوقات انكساراً وتذللاً وتواضعاً لأنه تحت جميع الأجسام، والخلق يضعون أقدامهم عليه ويمشون عليه ولما كان أعظم الأشياء نقصاً وحقارة هو التراب لا جرم صار محلاً ومنزلاً لمحبة رب العالمين قال تعالى: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ وأما النار فإنها تدعي العلو والرفعة والنورانية فكانت صفة النار صفة لفرعون كما أخبر الله في صفته: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضِعُّ طَائِفَةً مِنْهُمْ﴾ [القصص: 4].

وكانت صفة التراب صفة موسى عليه السلام قال: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْأَخِرَةُ نَجْعُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا﴾ [القصص: 83]، فلا جرم صار التراب أعز الأشياء والنار أذلها.

الحجة العاشرة: النار يعلوها الدخان المظلم فنوره تحتاني وظلمته فوقاني، وأما التراب فظلمته تحتاني ونوره فوقاني: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ﴾ [فاطر: 10]، وأيضاً النار حسنة المنظر قبيحة المخبر فهي كالمنافق وكالمرأة الفاجرة، والأرض قبيحة المنظر حسنة المخبر وأيضاً النار ظاهرها يسر وباطنها لا يسر، والأرض على الضد من ذلك فالحاصل أن باطن الأرض كله منفعة وباطن النار كله مضرة، ونظرة الخالق تعالى على الباطن والأسرار لا على الظواهر. فلا جرم عامل آدم بحسب باطنه وإبليس أيضاً على وفق باطنه.

الحجة الحادية عشرة: إن نهاية السفلى هي الأرض ونهاية العلو هي العرش فالأرض أحد أركان عالم الأجسام وأما النار فليست كذلك لأنها ليست في غاية العلو فإن السموات والكرسي والعرش فوقها ولا غاية في السفلى فإن الهواء والماء والأرض تحتها فما كانت النار كاملة في مقام من المقامات.

الحجة الثانية عشرة: إن النار سريعة الاشتعال سريعة الانطفاء كبيرة الاحتياج إلى الغذاء قليلة مدة البقاء، أما الأرض فإنها تغذي ولا تتغذى وتبقى ولا تنفد فثبت فضل التراب على النار.

الحجة الثالثة عشرة: من الكلمات المشهورة قولهم: كل شيء يرجع إلى أصله، فكأنه قيل: يا إبليس: «خلقتك من النار فيكون مردك إلى النار» وأما آدم فهو مخلوق من الطين والطين خاصيته التواضع والتواضع سبب القرب من رحمة رب

العالمين فلا جرم كانت عاقبة آدم هو [رحمة]⁽¹⁾ رب العالمين كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَجْنَبَهُ رَبُّهُ فَأَنَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾.

الحجة الرابعة عشرة: أن الأرض في نفسها ليست بحسنة ولا طيبة الرائحة إلا أنها تخرج جميع الأشياء التي لها حسن الوجه وطيب الرائحة، والنار حسنة الوجه إلا أنها سبب لحدوث الأشياء القبيحة وهي الاحتراق والدخان والفساد وقد ثبت أن العبرة بالسيرة لا بالصورة كما حققناه في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾.

الحجة الخامسة عشرة: أن التراب والماء لا يحصل الانتفاع بهما إلا عند فقدان الريح فإنه إذا وصل الريح إلى التراب صار غباراً مؤذياً وإذا وصل الريح إلى الماء تموج وخرج عن حد النفع وإذا وصل إلى النار أطفأ النار، فكأنه قيل لآدم: كان في قلب إبليس ريح التكبر فانطفأ ناره بتلك الريح فإياك ثم إياك احترز عن ريح التكبر لئلا يصير التراب الذي خلقت منه غباراً والماء الذي خلقت منه موجاً مهلكاً، فثبت من هذه الوجوه فضل التراب على النار.

وأما المرتبة الثانية: في خلقه آدم ﷺ كونه مخلوقاً من الماء قال الله تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَّاءٍ﴾ وقال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا﴾ وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَخْلُقْهُ مِنْ مَّاءٍ مَهِينٍ﴾ (٢٠) وقال جل وعز: ﴿أَلَمْ يَكُنْ نَفْسًا مِنْ مَّاءٍ يَمِينٍ﴾ (٢٧) [القيامة: 37]، وفيه فوائد:

الفائدة الأولى: أن تكون صافية تتجلى فيها نور جلال الله تعالى.

الثانية: أن يكون سياراً برأسه فيكون أبداً عابداً لله تعالى على قمة رأسه قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ [النحل: 49].

الثالثة: أن يكون طاهراً في ذاته، قال الله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا﴾ وقال ﷺ: «من توضأ تحات ذنوبه من جسده كما تتحات الورق من الشجر زمن الخريف»⁽²⁾.

الرابعة: فيه أنه إذا كان استعمال الماء في ظاهر الأعضاء يوجب زوال الذنوب

(1) [رحمة] زيادة يقتضيها السياق.

(2) رواه أحمد: 5/437 و439 والدارمي (725) والطبراني في الكبير (6150، 6151، 6152) من حديث سلمان.

فلأن تكون خلقة أصل الأعضاء من الماء دافعاً لتمكن الذنوب كان أولى .

المرتبة الثالثة: في تخليق آدم ﷺ كونه مخلوقاً من سلالة من طين والساللة هي فعالة بمعنى المسلوله لأنها هي التي تسل من الطين، والحكمة فيه أن يمتزج الكثيف واللطيف والمتحرك والساكن والكدر والصافي فيكون ذلك دليلاً على فردانية الصانع القادر كما قال تعالى: ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾ وفيه فائدة أخرى وهي أن من مشى على الطين أو انزلق رجله سقط وتلوث ثيابه ولكنه لا يهلك ولا تنكسر أعضاؤه، فلما كان الإنسان موصوفاً بهذه الشهوة التي هي منبع الفساد وبالغضب الذي هو منشأ سفك الدماء علم الحق جل جلاله أنه لا بد أن ينزلق رجله في سلوك طريق طاعة الله فإذا كان طيناً تلوث بالمعصية لكنه لا يهلك ولا ينكسر شيء من أعضائه بل يقوم سليماً كما قال تعالى: ﴿قُلْ يَبْعَادَى الَّذِينَ اسْتَفْزَوْا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْطُلُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ [الزمر: 53].

المرتبة الرابعة: في تخليق آدم ﷺ كونه مخلوقاً من سلالة من طين والساللة فعالة وهي بمعنى المسلول لأنها هي التي تسل من اللطف أجزاء الأرض فاعلم أنه روي في الخبر أنه قال ﷺ: «إن الله خمر طينة⁽¹⁾ آدم بيده أربعين صباحاً» فهذه اللطافة إنما حصلت لذلك الطين بسبب هذا التشريف فقال تعالى: ﴿قَالَ يٰٓإِبْرٰهِيْمُ مَا مَنَعَكَ اَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيدَيَّ﴾ [ص: 75]، وهذا كمال التشريف في حق آدم ﷺ.

فإن قيل: فقد قال تعالى في صفة تخليق الحيوانات: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا اَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ اَيْدِيْنَا اَنْعَمًا﴾ [يس: 71]، فبين أنه تعالى إنما خلق الأنعام بالأيدي وذكر أنه إنما خلق آدم باليدين وهذا يقتضي فضل الأنعام على الإنسان.

فالجواب - وبالله التوفيق - أنه تعالى ذكر دقيقة تزيل هذه الشبهة فإنه قال: ﴿خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ اَيْدِيْنَا اَنْعَمًا فَهُمْ لَهَا مَلِكُونَ﴾ [يس: 71] فبين أنه تعالى إنما خلق الأنعام بالأيدي لأجل مصالح الناس ورعاية لمهماتهم، فكان هذا التشريف عائداً إلى البشر أيضاً وفيه تنبيه على دقيقة كأنه قال: هيأت ذلك باليدين وهيأت ما تحتاج إليه بعد الحياة من المأكول والمشروب والملبوس والمركوب بالأيدي وذلك ليعلم أن

(1) قال الحافظ العراقي في تخریج أحادیث الأحياء (4/ 344) رواه أبو منصور الديلمي من مسند الفردوسي من حديث ابن مسعود وسلمان الفارسي بإسناد ضعيف جداً وهو باطل .

عنايته بك بعد حياتك أشد من عنايته بك قبل وجودك.

ومن النكت اللطيفة هاهنا ما سمعت أنه كان بنيسابور امرأة من عقلاء المجانين كان يقال لها: نازلين فكانت تقول: مسكين ابن آدم جسده في يد الحق كما قال: «خمر طينة آدم بيده أربعين صباحاً» وقلبه في إصبع الحق كما قال الخبر: «قلب المؤمن بين إصبعين من أصابع الرحمن»⁽¹⁾ الخبر ثم إنه مع ذلك لا يملك أمر جسده ولا أمر روحه صار التكليف متوجهة عليه والأوامر الإلهية لازمة عليه.

المرتبة الخامسة: كونه مخلوقاً من طين لازب، واللازب هو اللازم وإنما سمي لازباً ولازماً لأن اللازم واللازب هو الملتصق بالغير، والإنسان أكثر الأشياء خلقة فلا جرم كان أكثر الأشياء تمسكاً بذيل رحمة الله تعالى وأشد الأشياء التصاقاً بجانب فضله وإحسانه.

المرتبة السادسة: كونه صلصالاً وهو الذي إذا حرك تصلصل كالخزف الذي تسمع له صلصلة من داخله.

والصفة الثانية: كونه حمأ وهو الذي استقر في الماء وتغير لونه إلى السواد.

والصفة الثالثة: المسنون وهو الذي تغيرت رائحته ومنه قوله تعالى: ﴿فَانْظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ﴾ [البقرة: 259]، أي: لم يتغير، وأصله يتسنن. قال تعالى: ﴿فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ﴾ [محمد: 15]، أي: غير متغير. واعلم أن كونه صلصالاً إشارة إلى غاية ضعفه وقلة بقاءه فإن الطين الذي يصير صلصالاً ينكسر ويتفرق بأدنى سبب، وكونه من حمأ إشارة إلى الأخلاق الظلمانية البهيمية التي منشؤها قوة الشهوة، وكونه مسوناً وهو الرائحة المؤذية إلى الأخلاق السبعية التي منشؤها الغضب، ونظيرة قول الملائكة عليهم السلام: ﴿أَجْمَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾ [البقرة: 30]، والفساد منشؤه من الشهوة، وسفك الدماء منشؤه من الغضب.

(1) 17 - رواه مسلم (2654) من حديث عبد الله بن عمرو بلفظ: «إن قلوب بني آدم بين إصبعين من أصابع الرحمن...» الحديث. ورواه الترمذي: (1241) من حديث أنس بلفظ: «إن القلوب بين إصبعين من أصابع الله...» الحديث.

وأما المرتبة السابعة: وهي كونه صلصالاً كالفخار، فاعلم أن الصلصال قبل أن يصير فخاراً يصلح لأمر من الأمور فإذا جعل فخاراً حصل لأن يجعل فيه الماء، وذلك الماء إذا استقر فيه صار صافياً عذباً زلالاً فيكون ذلك إشارة إلى صيرورته صالحاً لحفظ معنى العبودية وزلال المعرفة.

أما المرتبة الثامنة: وهي قوله تعالى: ﴿خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ﴾.

فأشهر الأقوال فيه أن المراد منه هو آدم عليه السلام وهو قول مجاهد وسعيد بن جبير وعكرمة والسدي والكلبي، قال مجاهد: خلق الله آدم بعد كل شيء في آخر نهار الجمعة فلما دخل الروح رأسه ولم يبلغ أسفله قال: يا رب استعجل تمام خلقتي قبل غروب الشمس، قال مجاهد: فذاك قوله: خلق الإنسان من عجل.

وعن السدي قال: لما نفخ فيه الروح وتمكن الروح في رأسه عطس فقالت له الملائكة عليهم السلام: قل الحمد لله، فلما قال ذلك قال الله سبحانه: يرحمك ربك، فلذلك خلقتك؛ فلما دخل الروح في عينه نظر إلى ثمار الجنة، فلما دخل الروح جوفه اشتهى الطعام فوثب إلى ثمار الجنة قبل أن يبلغ الروح إلى رجليه، فهذا هو الذي أورث أولاده العجلة، ثم للمفسرين أقوال في العجل:

الأول: وهو قول المحققين خلق الإنسان من عجل أي: خلق عجولاً وذلك يدل على المبالغة كما يقال للرجل الذكي: هو نار يشتعل. والعرب قد تسمي الرجل بما يكثر منه فيقولون: ما أنت إلا أكل ونوم، وما هو إلا إقبال وإدبار هذا الوجه يتأكد بقوله ﷺ: ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا﴾ [الإسراء: 11] قال المبرد: خلق الإنسان من عجل أي: من شأنه العجلة كقوله تعالى: ﴿خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ﴾ أي: ضعيفاً.

الثاني: قال أبو عبيدة هو الطين بلغة حمير وأنشد:

«والنخل ينبت بين الماء والعجل» أي: بين الماء والطين.

الثالث: قال الأخفش: من عجل أي: من تعجيل من الأمر، وهو قوله سبحانه وتعالى: ﴿كُنْ فَيَكُونُ﴾.

الرابع: من العجل أي: من الضعف وهو قول الحسن.

المرتبة التاسعة: قوله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ﴾ ﴿١﴾ قيل في الكبد وجهان: قال صاحب الكشف: أصله من قوله: كبد الرجل كبداً فهو أكبد إذا مرض كبده وانتفخ، ثم اتسعت في هذا اللفظ حتى استعمل في كبد أي: تعب ومشقة ومنه اشتقت المكابدة، وقال آخرون: الكبد شدة الأمر ومنه تكبد اللبن إذا غلظ واشتد، ومنه الكبد كأنه دم تغلظ واشتد، والفرق بين هذين القولين أن الأول جعل اسم التكبد موضوعاً للكبد ثم اشتق منه الشدة وفي الثاني اللفظ موضوع للشدة والغلظ ثم اشتق منه اسم هذا العضو المخصوص.

الوجه الثاني: أن الكبد هو الاستواء والاستقامة.

الوجه الثالث: أن الكبد شدة الخلق والقوة.

إذا عرفت هذا فنقول: أما على الوجه الأول فيحتمل أن يكون المراد منه شدائد الدنيا فقط، ويحتمل أن يكون المراد شدائد التكليف فقط، وأن يكون شدائد الآخرة فقط وأن يكون المراد كل هذه الوجوه. أما إذا حملنا على شدائد الدنيا فيكون قوله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ﴾ [البلد:4]: أي خلقناه في أطوار كلها شدة ومشقة تارة في بطن الأم، ثم زمن الإرضاع، ثم بعد البلوغ تحصيل وجوه المعاش ودفع ضرر الأعداء، ثم دفع ضرر الآلام والأسقام والتصون من الآفات النازلة من السماء والخارجة من الأرض. أما الثاني وهو حمله على شدائد الدين وهو توجه التكليف الشاقة عليه، قال الحسن: تكابد الشكر على السراء والصبر على الضراء وتكابد المحن في أداء العبادات والرضى بقضاء الله تعالى عند نزول الآفات والبليات. وأما الثالث وهو حمله على مشاق الآخرة فالموت ومسائلة الملكين وظلمة القبر ثم البعث والعرض على الله تعالى إلى أن يستقر به القرار إما في الجنة أو في النار - ونعوذ بالله منها -.

وأما الرابع: وهو أن يكون اللفظ محمولاً على الكل فهو الحق وعندي وجه آخر وهو أنه ليس في هذه الدنيا لذة ألبتة بل ذاك الذي يظن أنه لذة فهو خلاص عن الألم، فإن ما يتخيل من اللذة عند الأكل فهو خلاص عن ألم الجوع وما يتخيل من اللذة عند اللبس فهو خلاص عن ألم البرد والحر، فإذا تفكرت علمت أنه ليس للإنسان إلا الألم والخلاص منه فهذا معنى قوله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ﴾

أي: هو في طول عمره في مكابدة الآلام ومقاساة التعب والمؤذيات، وعند هذا الحرف يظهر أنه لا بد في حكمة الحكيم المدبّر لهذا العالم من الحشر والنشر والبعث يوم القيامة لأن الحكيم الذي دبّر خلق الإنسان إن كان مطلوبه أن يؤلم الإنسان فهذا لا يليق بالرحمة، وإن كان مطلوبه أن لا يتألم ولا يلتذ ففي تركه للعدم حصول لهذا المطلوب وإن كان مطلوبه إيصال اللذة والنفع إليه فقد بيّنا أنه ليس في هذه الحياة لذة وأنه تعالى خلق الإنسان في هذه الدنيا في كبد ومشقة ومحنة، فإذا لا بد بعد هذه الدار من دار أخرى لتكون تلك الدار دار السعادات والكرامات والخيرات.

وأما على الوجه الثاني: وهو أن يفسر الكبد بالاستواء فقال ابن عباس: في كبد أي: قائماً منتصباً وسائر الحيوان تمشي منكسة فهذا امتنان على الإنسان بهذه الخلقة.

وأما المرتبة العاشرة: من مراتب خلقة الإنسان فهي قوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ﴾ فاعلم أن آثار ضعف الإنسان لائحة كما قال بعضهم: تميته⁽¹⁾ الغرقة وتؤذيه البقة وتقتله الشرقة.

قال هارون الرشيد لابن السماك: عِظني فقال: إن عطشت ولم تجد شربة من الماء إلا بكل ما تملك ماذا تعمل؟ قال: أعطي وأخذ، قال: فإن احتبس ذلك الماء ولم يخرج إلا ببذل كل ما تملك ماذا تعمل؟ قال: أعطي حتى يخرج، قال: فإذا الشربة الواحدة من الماء قيمة ما تملك مرتين فما تساوي ملكك شربة ولا بولة.

وأيضاً فإن البقة أصغر الحيوانات جثة وأضعفها بنية ثم إنها قتلت نمرود أكبر ملوك بني آدم وأطغاهم وأعظمهم⁽²⁾ سلطاناً، وروى: أن الشافعي رحمه الله حضر عند الملوك العظماء فكان يجيئه النوم وكان الذباب يقع على وجهه فيوقظه ويؤذيه ثم أنه كان يلطم وجهه وخذه عند طرد الذباب فقال في أثناء هذه الحالة للشافعي: ما الحكمة في خلق الذباب؟ فقال الشافعي رحمه الله في الحال: ليدل به عظماء الملوك ويظهر عجزهم عن دفعه، وقيل: ناظر واحد من الناس مع الحشرات والهوام في القوة والقدرة فقالت نحلة في أثناء الكلام⁽³⁾: أليس إذا أخذ الآذي سلاحه وسيفه ورمحه بيده فجاء واحد منا يلسعه بإبرته ويشغله ذلك عن كل ما هو فيه ويثور جلده ويتألم أعضاؤه حتى لا

(1) تميته في الأصل: تنبته.

(2) أعظمهم في الأصل: أعظم.

(3) أليس: في الأصل: قال الدينوري أليس.

يمكنه أن يقبض على سيفه؟ وقالت ذبابة: أليس أن أعظمهم سلطاناً وأشدّهم هيبة إذا قعد على سرير ملكه مع الهيبة والعظمة فإنه يجيء أحدنا من المطبخ أو من الخلاء ملوث اليدين والجناحين فيقعد على وجهه وثيابه ويلطخه ولا يقدرّون على الاحتراز منا؟ وقالت الهوام والحشرات: إذا قعد أحد في مجلسه وسريره ويجيء أحدنا فيدخل في ثيابه فيفزع ويزعجه وإذا أراد أن يبطش بنا يصفع نفسه بيده ويلطم خده بكفه؟ وكل ذلك دليل على عجز الإنسان وتمايم البيان فيه قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ ضُرْبَ مَثَلٍ فَاستَمِعُوا لَهُ﴾ [الحج: 73]... إلى قوله ﴿مَا فَكَّرُوا اللَّهَ حَقَّ فَكْرِهِ﴾ هذا هو الكلام في مراتب خلقة الإنسان عند وجوده، وقيل: هذه المراتب كلها العدم المحض كما قال تعالى لذكرى التي: ﴿وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا﴾ [مريم: 8]، وقال تعالى في أول سورة الإنسان: ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنْ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا﴾ [الإنسان: 1]، فهذه الحياة الدنياوية كانت معدومة من الأزل إلى الآن وستصير معدومة من الأزل إلى الأبد فانظر إلى طول مدة الأزل وطول مدة الأبد ثم انظر إلى هذه الحياة المحفوفة بهذين الطرفين حتى تعرف حقارة هذه الحياة وصغرها وقلتها بلى إن صرفها إلى الطاعات استوجب بها الثواب الأبدي [والسعادة السرمدية]⁽¹⁾ فحينئذ يكون هذا الحقير عظيماً وهذا الصغير كبيراً وبالله التوفيق.

(1) السعادة السرمدية: في الأصل: سعادة السرمدي.

الفصل الخامس: في عجائب تكوين الأجنة

اعلم أنه ﷺ خلق الخلق من أشياء مختلفة فخلق السماء من دخان، قال تعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ﴾ [فصلت: 11]، وخلق الأرض من زبد البحر على ما نقل عنه صلوات الله عليه وسلامه أنه قال: «خلق الله تعالى جوهرة لطيفة ونظر إليها بعين الهيبة فصارت ماء ثم سلط على الماء حرارة فارتفع منه زبد فخلق منه الأرض وخلق الجنة من رحمته والنار من غضبه»، قال ﷺ: سبقت رحمتي غضبي. وخلق الملائكة من النور كما قال ﷺ: «إن الله خلق الملائكة من النور وخلق الجن من النار» قال تعالى: ﴿وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَّارِجٍ مِّنْ نَّارٍ﴾ [الرحمن: 15]، وقال: إبليس - نعوذ بالله منه -: ﴿خَلَقْنِي مِنْ نَّارٍ﴾ [ص: 76] وخلق آدم من التراب قال تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقْنَاهُ مِنْ تُرَابٍ﴾ وخلق حواء من بعض أعضاء آدم قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ [النساء: 1] وخلق عيسى من الريح، قال تعالى: ﴿فَنفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُّوحِنَا﴾ وخلق أولاد آدم من النطفة، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ﴾ [الرحمن: 15] ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُفْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ [المؤمنون: 12-13] وخلق سائر الحيوانات من الماء، قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَّاءٍ﴾ وخلق ناقة صالح من الصخرة فقال: ﴿هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ﴾ [الأعراف: 73]، ثم كل هذه الأشياء مخلوقة من هذه المواد وهذه المواد يمنع كونها مخلوقة من مواد أخرى وإلا لزم التسلسل، ويمتنع أن تكون هذه المواد قديمة لأنها محل الحوادث وكل ما كان محلاً للحوادث فهو حادث، فهذه المواد محدثة فهي مخلوقة لله تعالى والله خلقها على عدم المحض والنفي الصرّف فثبت أنه تعالى تارة يحدث الأشياء عن عدم المحض والسلب الصرّف وتارة يحدث عن بعض الأشياء، ثم هاهنا يجب أن يتأمل الإنسان وهو أن كل قادر سوى الله فإنه لا يمكنه التصرف إلا في نوع واحد فالخياط يتصرف في الثياب والحداد يتصرف في الحديد، وأما الحق ﷺ فهو المتصرف في المعدومات والموجودات على وفق الحكمة ومطابقة المصلحة فمن

هاهنا يظهر كمال قدرة الله تعالى، ثم هاهنا دقيقة أخرى وهي أنه تعالى إذا خلق شيئاً من شيء جعل مرجعه إليه ألا ترى أن الملائكة لما كان أصلهم من النور فهم لما طعنوا في البشر حيث قالوا: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا﴾ [البقرة: 30] لكنهم ما بقوا مستمرين على ذلك الطعن بل رجعوا إلى مقتضى أصلهم وهو النورانية وعادوا إلى الصلح والاستغفار فقال تعالى حكاية عنهم: ﴿وَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ﴾ [غافر: 7]، وعيسى عليه السلام لما كان أصله نفخة جبريل صلوات الله عليه لا جرم عاد في الآخرة إلى عالم الأفلاك فقال تعالى: ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ﴾ [آل عمران: 55]، وقال: ﴿بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ﴾ [النساء: 158]، وكذا البشر لما كان أصلهم من التراب لا جرم في الآخرة يرجعون إلى التراب ويصيرون تراباً كما قال تعالى: ﴿مِنهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى﴾ [طه: 55] وإذا علم العبد أن مصيره إلى التراب والفناء زالت محبة الدنيا عن قلبه وأعرض عنها وعلم أنه يجب عليه الاهتمام بعمارة الآخرة والإقبال على طاعة الله ﷻ: وإذا عرفت هذه المقدمة فنقول: إن الله تعالى ذكر في القرآن كيفية الخلق فقال في سورة الحج: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَيْتِ فَإِنَّا خَلَقْنَاهُ مِن تَرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُّخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ لِكُلِّ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُوْهُنَّ أَشَدُّكُمْ وَمِنْكُمْ مَّن يُّتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَّن يُرَدُّ إِلَى أَرْدَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئاً وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِئَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأُتْبِتَتْ مِن كُلِّ رَوْحٍ يُّهْبِجُ ﴿٥﴾ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾﴾ [الحج: 5 - 6]، وقال في سورة القيامة: ﴿أَلَمْ يَكُنْ لَّكَ نُطْفَةٌ مِّن مَّيِّ يَمْنَى ﴿٢٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى ﴿٢٨﴾ فَعَلَّ يَنَّهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى ﴿٣٧- 38- 39﴾، وقال في المرسلات: ﴿أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ ﴿٢٠﴾ فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿٢١﴾ إِلَٰك قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢٢﴾ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَدِيرُونَ﴾ [المرسلات: 20 - 23]، إلا أن أكثرهما شرفاً وتفضيلاً هو المذكور في أول سورة قد أفلح وهو قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ ﴿٧﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿٨﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظْمًا فَكَسَوْنَا الْعِظْمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا ءَاخِرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴿٩﴾﴾ [المؤمنون: 12 - 14]، فاعلم أنه تعالى ذكر في هذه الآية سبع مراتب في تخليق الأجنة، وقبل هذه الآية افتتح السورة بذكر سبعة أنواع من الخصال والخيرات والطاعات.

أولهما: الإيمان، وهو قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [المؤمنون: 1] والكلام في حقيقة الإيمان سيأتي في باب منفرد إن شاء الله تعالى.

ثانيها: الصلوات، وهي قوله تعالى: ﴿فِي صَلَاتِهِمْ خَشَعُونَ﴾ [المؤمنون: 2] واختلفوا في الخشوع فمنهم من جعله من أفعال القلوب كالخوف والرهبة، ومنهم من جعله من أفعال الجوارح كالسكون وترك الالتفات ومنهم من قال: هو عبارة عن مجموع الأمرين وهو الأولى فالخاشع في صلاته لا بد أن يحصل له من قسم أفعال القلوب نهاية الخضوع والتذلل للمعبود ومن التذلل أن لا يكون مشغل القلب بشيء سوى تعظيم خالقه، ومن قسم أفعال الجوارح أن يكون ساكناً مطرقاً ينظر إلى موضع سجوده ومن الترك أن لا يلتفت يميناً وشمالاً فالخشوع عبارة عن مجموع هذه الأشياء إلا أن الخشوع يرى على الإنسان ليس إلا ما يتعلق بالجوارح فإن الذي يتعلق بالقلب لا يرى وتتمام هذا الكلام في هذا المعنى سيأتي إن شاء الله تعالى في كتاب الصلاة.

وثالثاً: قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾ [المؤمنون: 3] وفي اللغو أقوال:

الأول: أن يدخل فيه كل ما كان حراماً أو مكروهاً أو مباحاً ولكن لا يكون للإنسان ضرورة ولا حاجة إليه.

الثاني: أنه عبارة عن كل ما كان حراماً وهذا التفسير أخص من الأول.

الثالث: أنه عبارة عن المعصية في القول وهذا أخص من الثاني.

الرابع: أنه المباح الذي لا حاجة إليه واحتج هذا القائل بقوله تعالى: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ﴾ [البقرة: 225]، فكيف يحمل اللغو على المعاصي مع أن المؤاخظة فيها غير حاصلّة، واحتج الأولون بأن اللغو إنما سمي لغواً لأنه يلغى، فكأنه ما يقتضي الدين إلغاءه كان يسمى باللغو ثم اللغو قد يكون كفراً كقوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ﴾ [فصلت: 26]، وقد يكون كذباً لقوله تعالى: ﴿لَا تَسْمَعُ فِيهَا لَغِيَةً﴾ [الغاشية: 11]، وقوله تعالى: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا﴾ [الواقعة: 25].

إذا عرفت اللغو فنقول: أنه لا مدحهم بأنهم معترضون عن اللغو والإعراض

هو بأن لا يفعله ولا يرضى به ولا يخالط من يقدم عليه قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾ [الفرقان: 72]، واعلم أنه ﷺ وصفهم بالخشوع في الصلاة وأتبعه بوصفهم بالإعراض عن اللغو حتى يحصل لهم الفعل والترك فالفعل هو الصلاة والترك هو الإعراض عن اللغو.

ورابعها: قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ﴾ [١] والقول في تفسير اسم الزكاة وفي منافعه سيأتي في باب الزكاة.

وخامسها: قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأُفْرُوجِهِمْ حَافِظُونَ﴾ [٢] والكلام فيه سيأتي إن شاء الله تعالى في باب النكاح.

وسادسها: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْنَتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ﴾ [المؤمنون: 8].

اعلم أنه يسمى الشيء المؤمن عليه والمعاهد عليه أمانة وعهداً، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾ [النساء: 58]، وقال تعالى: ﴿وَتَحْذَرُوا أَمْنَتَكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الأنفال: 27]، وإنما تؤدي الأمانة الأجسام لا المعاني وإنما تقع الخيانة في المؤمن عليه لا في نفس الأمانة والعهد ما عقده الإنسان على نفسه فيما يقربه إلى ربه وتقع أيضاً هذه اللفظة على ما أمر الله به كقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا﴾ [آل عمران: 183]، والراعي هو القائم على الشيء بالحفظ والإصلاح كراعي الغنم وراعي الرعية واعلم أن الأمانة والخيانة متقابلان قال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَحْذَرُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَتَحْذَرُوا أَمْنَتَكُمْ﴾ فكل ما خرج عن أحدهما دخل في الآخر وكل العبادات دخل في الأمانة بدليل قوله تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الأحزاب: 72]، وتماثل الكشف فيه أن العبادات قد تكون مخفية كالصوم وغسل الجنابة واستيفاء الوضوء وغسل الثياب، وقد تكون بحيث يخفى كيفية الإتيان بها قال ﷺ: «أعظم الناس خيانة من لم يتم صلاته»⁽¹⁾ وجملة ذلك ما يلتزمه الإنسان بفعل أو قول فيلزمه الوفاء به كالودائع والعقود وما يتصل بها، ومن ذلك الأقوال التي يحرم بها النساء ويحرم بها التصرف في العبد لأنه مؤتمن في كل ذلك وأما العهد فإنه يدخل فيه العقود والأيمان والنذور فبين الله ﷻ أن مراعاة هذه الأمور والقيام بها معتبرة في

(1) لم نره بهذا اللفظ فيما لدينا من المراجع.

حصول الفلاح.

وسابعها: قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ (١) واعلم أنه فرق بين الخشوع والمحافضة، فإن الخشوع صفة القلب على ما ذكرنا والمحافضة عبارة عن تحصيل شروطها في رعاية الوقت والطهارة والتشمر لأدائها وترك التواني فيها فهذه أمور سبعة قدّم الله ﷻ ذكرها ثم قال بعدها: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ﴾ (٢) الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿[المؤمنون: 10 - 11]، وها هنا سؤالان:

السؤال الأول: لم سمي الجنة بالميراث مع أنه ﷻ حكم بأن الجنة حقهم في قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ﴾ [التوبة: 111].

والجواب من وجوه:

الأول: أنه روي عن الرسول ﷺ أنه قال: «لا مكلف إلا وقد أعد الله له في النار ما يستحقه إن عصى وفي الجنة ما يستحقه إن أطاع» (١) وجعل لذلك علامة فإذا آمن البعض ولم يؤمن البعض صارت منازل من لم يؤمن منقولة إلى الذين آمنوا فلما كان حرمانهم عن تلك الدرجات ودخولهم في النار شبيهاً بالموت سمي ذلك ميراثاً لهذا الوجه وقد قال الفقهاء: إنه كما يورث عن الميت ما كان مملوكاً له كذلك يورث عنه ما كان يقدر فيه أنه كان مملوكاً له إن فعل وإن لم يدخل في ملكه، كالدية فإنها موروثه مع أنها لم تدخل في ملك المقتول ألبته.

الثاني: أنه لما حصلت الجنة لهم مع أنهم ما كانوا عارفين في الدنيا بكمية منافعها أشبه ذلك الانتقال إلى الوارث.

الثالث: إن الجنة مسكن أبينا آدم فإذا انتقلت إلى أولاده كان ذلك شبيهاً بالميراث.

السؤال الثاني: كيف حكم على المؤمنين [المتصفين] (٢) بالصفات السبع بالفلاح مع أنه تعالى ما تمّم ذكر الواجبات كالصوم والحج؟

(1) لم نره فيما لدينا من المراجع.

(2) المتصفين: زيادة يقتضيها السياق.

الجواب: أن قوله: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْتِنَتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَعُونَ﴾ يأتي على كل الواجبات من الأفعال والتروك.

السؤال الثالث: هذه الآية تدل على أن هؤلاء هم الوارثون فأما من لم يأت بالطاعات وأتى بالمعصية ثم تاب ومات عقب التوبة من غير فعل شيء من الطاعات وجب أن لا يدخل الجنة وهو خلاف الآيات الدالة على أن الثائب من أهل الجنة.

الجواب: - والله أعلم -: إن ظاهر الآية وإن كان يفيد الحصر إلا أنه يجب حمل الظاهر على أن الكاملين من أهل الجنة هم الموصوفون بهذه الصفات بدليل أن المجانين والصبيان يدخلونها وكذا الفساق من أهل الصلاة لقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ ونظير حمل هذا الحصر على حالة الكمال قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنفال: 2]، ومن الناس من قال: الفردوس عبارة عن أشرف موضع في الجنة وعلى هذا التقدير يزول السؤال، قال عليه السلام: «الفردوس مقصورة الرحمن»⁽¹⁾ وعن أبي أمامة عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال: «سلوا الله الفردوس فإنها سررة الجنة»⁽²⁾ واعلم أنه صلى الله عليه وآله لما شرح في أول السورة هذه المراتب السبعة في العبادات أردفها بما يدل على وجود الصانع وقدرته وعلمه وحكمته وهو ذكر المراتب السبع في خلق الإنسان أولها قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ﴾ وثانيها قوله: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ﴾ وثالثها قوله: ﴿ثُمَّ خَلَقْنَا النَّطْفَةَ عَلَقَةً﴾ ورابعها قوله: ﴿فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً﴾ وخامسها قوله: ﴿فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظْمًا﴾ وسادسها [قوله]⁽³⁾ ﴿فَكَسَوْنَا الْعِظْمَ لَحْمًا﴾ وسابعها قوله: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ﴾ [المؤمنون: 14].

فلنشرح أحوال هذه المراتب السبعة بعون الله وفضله:

أما المرتبة الأولى: وهي قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ﴾ ففيه سؤال مشكل وهو أن المراد من الإنسان إن كان هو آدم عليه السلام فكيف يستقيم قوله: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ﴾ فإن آدم عليه السلام ما كان كذلك وإن كان أولاد آدم فكيف

(1) لم نره في المراجع التي بحوزتنا.

(2) رواه الطبراني في الكبير (7966)، والحاكم في المستدرک: 2/ 37 من حديث أبي أمامة الباهلي.

(3) [قوله]: زيادة يقتضيها السياق.

يستقيم قوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ﴾ فإنهم ليسوا مخلوقين من الطين؟

والجواب - والله أعلم - من وجوه:

الأول: أن لفظ الإنسان شامل لآدم عليه السلام وأولاده ثم قوله: ﴿مِّن سُلَالَةٍ﴾ منصرف إلى آدم وقوله: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُفُفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾ منصرف إلى أولاده.

الثاني: أن المراد من الإنسان في هذه الآية أولاد آدم والطين هاهنا اسم آدم والسلالة هي الأجزاء الطينية المبتوثة في أعضائه وهي التي لما اجتمعت وحصلت في أوعية المني صارت منياً وهذا التفسير مطابق لقوله تعالى: ﴿وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِن طِينٍ ۖ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلَالَةٍ مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ﴾ [السجدة: 7-8].

الثالث: هو الذي ذكرت فقلت: المراد من الإنسان هاهنا أولاد آدم [وذلك]⁽¹⁾ لأن المقصود من ذكر هذه الآية التنبيه على ما يدل على وجود الصانع، وهذا لا يحصل إلا بالأمر المشاهد وهو تولد أولاد آدم لا تولد ذات آدم فثبت أن المراد من الإنسان أولاد آدم، بقي أن يقال: فما المراد من قوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ﴾ مع أن أولاد آدم عليهم السلام ليسوا كذلك؟

جوابه: أن الإنسان إنما يتولد من النطفة وهي إنما تتولد من الأغذية والأغذية إما حيوانية وإما نباتية والحيوانية تنتهي إلى النباتية والنبات إنما يتولد من صفو الطين، والإنسان بالحقيقة إنما يكون متولداً من سلالة من طين أقصى ما في الباب أن تلك السلالة من الطين تواردت عليه أطواراً بخلقه كما أنه يولد من المني بعد تعاقب الأطوار والأدوار عليه ولم يكن ذلك قادحاً في كونه متولداً من المني وهذا التأويل الذي ذكرته مطابق باللفظ ولا يحتاج معه إلى شيء من التكلفات والله أعلم بمراده.

المرتبة الثانية: قوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُفُفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾ واعلم أن الأطباء يقولون: أن الإنسان إذا أكل طعاماً فإنه ينطبخ ذلك الطعام في معدته لا بحرارة المعدة وحدها بل بحرارة ما [يحيط]⁽²⁾ بها: أما من اليمين فمن الكبد، وأما من الشمال

(1) وذلك، في الأصل: وكذلك.

(2) يحيط، في الأصل: يطيف.

فبالطحال، وأما من قدام فبالثوب الشحمي القابل للحرارة سريعاً، وأما من فوق فالقلب يتوسط تسخينه للحجاب، فما يكون منه صافياً يدخل في عروق صلاب دقاق في الكبد والذي كالثقل ينزل في الأمعاء ثم ينطبخ ذلك المصفى مرة أخرى في الكبد ويحصل عند ذلك الانطباخ رغوة وهي الصفراء وتذهب إلى المرارة. وترسب وهو السوداء، ويذهب إلى الطحال وينفصل المائية الفضلية وتذهب إلى الكليتين ومنها إلى المثانة ومنها إلى الإحليل وتخرج. ثم إنه تعالى خلق مجرى بين الطحال وبين فم المعدة ومجرى آخر بين المرارة والأمعاء ثم إن تلك السوداء ينصب شيء منها على فم المعدة فتحصل في المعدة دغدغة الجوع ولو انسدت هذا المجرى لم يحصل للإنسان شعور بالحاجة إلى الطعام. وينصب شيء من تلك الصفراء على الأمعاء فتحصل في الأمعاء داعية إخراج الفضلة فلو انسدت ذلك المجرى لم تنصب تلك الصفراء على الأمعاء ولم يحصل للإنسان شعور بالحاجة إلى إخراج الثقل فيبقى الثقل فيها ويتولد القولنج ثم إنه يحصل بين هذين الطبخين طبخ ثالث وهو أن ذلك الدم الصافي يخرج من الكبد ويتوزع في العروق وينطبخ مرة ثالثة في العروق، ثم يحصل طبخ رابع وهو أن تلك الدماء المتوزعة في العروق تنصب على جواهر الأعضاء وتكيف بكيفية طبائع تلك الأعضاء فبعضها يصير متكيفاً بكيفية العظم وبعضها بكيفية اللحم وبعضها بكيفية العصب. فهذه أربع مراتب في الطبخ، إذا عرفت هذا فنقول: أنه إذا صارت الشهوة مستولية على الإنسان تولدت من تلك الشهوة سخونة منتشرة في جميع الأخلاط والأعضاء بسبب تلك السخونة قد بقي بخار لطيف ورغوة من جميع الأعضاء والأخلاط إنما يرتفع فما حصل عند الهضم الرابع فيتولد من الهضم جوهر سببه بالطبع في العظم ومن اللحم والعروق والأعصاب كذلك، ثم إنه كما حصل في تلك الرغبة قوى وطبائع مشابهة لتلك الأعضاء البسيطة فكذلك يحصل فيها قوى وطبائع مشابهة لقوى الأعضاء المركبة فيحصل فيها أجزاء من الدماغ وأجزاء من العين وأجزاء من اليد وأجزاء من الرجل، ولهذا المعنى لما سأل اليهود رسول الله ﷺ عن سبب مشابهة الولد تارة أباه وأخرى أمه فقال: «إن كان الغالب هو ماء الرجل حصلت المشابهة بالأب وإن كان الغالب هو ماء المرأة حصلت المشابهة للأم»⁽¹⁾، ثم إن هذه الرغبة المختلصة من جميع الأعضاء والأبعض تصعد في العرقين السياسين بأمر الحكيم الخبير إلى الدماغ وذلك لأن الدماغ أشرف الأعضاء للإنسان وهو مسكن القوة المذكورة

(1) هو عند البخاري: (3938) ومسلم (311) من حديث أنس وعند مسلم (314) من حديث عائشة بمعناه.

الحافظة فاقتضت الحكمة الإلهية أن يحصل من خواص الدماغ الذي هو أشرف أعضاء بدن الإنسان في تلك الرغبة أثر وكيفية، ثم إنه تعالى خلط بتلك الأجزاء أشياء كثيرة من أجزاء الدماغ ولذلك فإن من باشر كثيراً ظهر أثره على العينين في الفتور والكلال والانكساء، ثم إنه ﷻ ينزل تلك الأجزاء من الدماغ إلى صلب الرجل وترائب المرأة ثم عند الوقوع ينزل من الصلب والترائب إلى مستقر الرحم فهذا هو المراد من قوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾.

واعلم أننا قد ذكرنا أن هذه النطفة تجري مجرى رغبة تنتقل من الأعضاء بسبب ذوبان يعترض لها عند استيلاء حرارة الشهوة فيكون بعض تلك الأجزاء من ذوبان العظم وبعضها من ذوبان اللحم وبعضها من ذوبان العصب وبعضها من ذوبان العروق، ولما كان البدن الإنساني مخلوقاً من الطبائع الأربعة كان ذوبانها أيضاً كذلك فيكون المني جسماً مركباً من أرضية ومائية وهوائية ونارية، فالهوائية والنارية عالية عليها الحرارة ويدل عليه أن بياض الرطوبة إنما يكون بسبب اختلاط الهوائية بها كما يكون في الزبد والأجزاء الكثيفة التي في المني هو مواد الأعضاء والأجزاء اللطيفة هو أن فيه مواد الأرواح وتلك الأجزاء اللطيفة والكثيفة مختلط بعضها إلى بعض، ولما كان اللطيف سريع التخلل والتلاشي اقتضت الرحمة الإلهية جعل الأجزاء اللطيفة في الوسط وجعل الأجزاء الكثيفة كالصوان لها فيصير الكل كالكرة المستديرة فيكون باطنها مملوئاً من الأجزاء الروحانية اللطيفة وظاهرها من الأجسام الكثيفة، وذلك الموضع الذي هو مجمع الأجزاء اللطيفة هو الموضع الذي استحکم وكمل كان قلباً فلهذا المعنى قال العلماء: أول الأعضاء الإنسانية تكوناً هو القلب وآخرها موتاً هو القلب. وعند هذا يظهر أن قطرة النطفة تصير كالكرة ويكون مجمع الأرواح في باطن تلك الكرة هو القلب وحينئذ يحصل هاهنا أحوال عجيبة:

الأول: أن العالم الأصغر الذي هو الإنسان كرة كما أن العالم الأكبر أيضاً كرة.

الثاني: أن كرة العالم الأصغر يبقى معلقة في جوّ الرحم يحفظه الخالق العظيم كما أن كرة العالم الأكبر يبقى معلقة في الخلاء الذي لا نهاية له يحفظه الخالق الحكيم كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا﴾.

الثالث: أن كرة العالم الأصغر الكثيف محيط وهو اللحم والبشرة والمحاط به اللطيف وهو السموات والمحاط به الكثيف وهو الأرض⁽¹⁾.

الرابع: أنه تعالى قال في خلق السموات والأرض: ﴿فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ وأما في العالم الأصغر فقال أهل التجارب: أن هذه الكرة المتولدة من هذه النطفة تبقى ستة أيام على حالتها الأولى لا تتغير منها صفة ولا تزول منها حالة.

الخامس: روي أنه تعالى لما أراد خلق آدم ﷺ أمر الملائكة عليهم السلام يأخذوا من كل ناحية من نواحي الأرض قبضة فبعض تلك القبضة أحمر وبعضها أسود وبعضها أبيض، وبعضها حرة وبعضها سبخة وبعضها عذبة وبعضها مرة فلا جرم جاء أولاد آدم ﷺ على صفات مختلفة بعضهم أحمر وبعضهم أسود وبعضهم حر كريم وبعضهم نذل سفيه، فكذا هاهنا لما أراد الله تعالى تخليق ولد آدم أمر الملائكة عليهم السلام الموكلين بأبدان البشر حتى أخذوا من كل طرف من أطراف أبدان الأب والأم جزء على خاصية أخرى: فأخذوا من سواد الحدقة والشعر جزء أسود، ومن بياض الملتحمة والسن والجلد جزء أبيض ومن الدم جزء أحمر، ومن الدماغ الأجزاء الباردة ومن القلب الأجزاء الحارة، ومن الكبد الأجزاء الرطبة ومن العظام الأجزاء اليابسة، وبالجملية أخذوا من طرف من أبدان الأبوين جزءاً مناسباً له في الطبيعة مشاكلة له في الخاصية. ثم إنه ﷺ كما أخبر عن طينة آدم أنه خمرها بيده أربعين صباحاً فكذا هاهنا خمر هذه الأعضاء بعضها ببعض أربعين صباحاً، وكما أنه ﷺ بحكمته رعى في تخمير طينة آدم ﷺ دقائق لا تصل إليها العقول والأفكار فكذا في تخمير هذه الأجزاء بعضها ببعض راعى أسراراً لا تطلع عليها أفهام الخلق، فيقدر لكل شخص من ذلك التخمر نسبة خاصة في المقدار والكيفية ومناسبة قدره في الحسن والقبح والسعادة والشقاوة والغنى والفقر والعلم والجهل لا يعرفها أحد إلا هو ولا يقف على كنه أسرارها أحد إلا هو جلّ وعز له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين، واعلم أنه تعالى ذكر في آيات كثيرة تولد الإنسان عن النطفة فقال في أول سورة النحل: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ [النحل: 4]، وقال في آخر يس: ﴿أَوَلَمْ يَرِ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ [يس: 77]، وقال في الواقعة: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ

(1) لا يخفى ما في هذه الفقرة - الثالث - من ركاكة ويبدو أن بها سقطاً.

﴿٥٨﴾ ۞ أَأَنْتَ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ ﴿[الواقعة: 58 - 59]، وقال في الإنسان: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿٢﴾﴾ [الدهر: 2]، وقال في عبس: ﴿قَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مَا أَكْفَرُهُ ﴿٧﴾ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقْتُمْ ﴿٨﴾ مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقْتُمْ فَقَدْ رَمَوْهُ نَذِيرًا ﴿٩﴾ ثُمَّ السَّبِيلَ يَسْرُهُ ﴿١٠﴾ ثُمَّ أَنَا هُمْ فَأَقْبِرُ ﴿١١﴾ ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنشُرُهُ ﴿١٢﴾﴾ [عبس: 17 - 22].

وأمثال هذه الآيات كثيرة، واعلم أنه تعالى ذكر في القرآن للمني صفات كثيرة منها قوله تعالى في سورة الطارق: ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾ خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ ﴿٦﴾ يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ﴿٧﴾﴾ [الطارق: 5 - 7]. وهذه الآية مشتملة على ذكر الصفتين:

الصفة الأولى: كونه ماء دافقاً ولنذكر تفسير الدافق بحسب اللغة وما يتعلق بكونه دافقاً من وجه المصلحة، أما اللغة فاعلم:

أن الدفق صب الماء يقال: دفقت الماء أي: صببته وهو مدفوق أي: مصبوب، ولما كان هذا الماء مدفوقاً فاختلّفوا في أنه لِم وصف بأنه دافق؟ وذكروا فيه وجوهاً:

الأول: قال الزجاج: معناه ذو اندفاق كما يقال: دارع وفارس ونابل وتامر أي: أي ذو درع وفارس ونبل وتمر.

الثاني: قال الفراء: أنهم يسمون المفعول باسم الفاعل كقولهم: شر كاتم وهم ناصب وليل نائم، قال تعالى: ﴿فِي عِشَّةٍ رَاغِبَةٍ﴾ أي: مرضية.

الثالث: قال الخليل في كتاب العين: دفق الماء دفقاً ودقوقاً إذا انصب بمرة.

الرابع: أن الدافق صاحب الماء فأطلق هذا الوصف على الماء على سبيل المجاز.

وأما وجه الحكمة في كون الماء مندفعاً فاعلم أن وجه الحكمة فيه التنبيه على أنه ليس المقصود من المباشرة تحصيل اللذة بل تحصيل الولد وذلك لأن كون الماء مندفعاً يمنع من دوام اللذة، وذلك لأن السيالان المستمر أقوى في إيجاد اللذة وأكثر دواماً لها بل الحكمة في الدفق بالقوة أن يكون للمني قوة في الوصول إلى قعر الرحم الذي سماه الله تعالى قراراً مكيناً.

الصفة الثانية: كون المني خارجاً من بين الصلب والترائب، وترائب المرأة عظام صدرها حيث تكون القلادة وكل واحدة من تلك العظام فهي ترربة وقد اختلف

المفسرون فمنهم من قال: إنه مخلوق من الماء الذي يخرج من صلب الرجل وترائبه، ومنهم من قال: أنه مخلوق من الماء الذي يخرج من صلب الرجل وترائب المرأة، واحتج الأولون بأنه تعالى بيّن أن الإنسان مخلوق من ماء دافق والذي يوصف بهذا الوصف هو ماء الرجل ثم عطف عليه بأن وصفه بأنه يخرج من بين الصلب والترائب وذلك يقتضي كون هذه الصفة صفة لماء الرجل وإذا كان كذلك ثبت أن الولد مخلوق من ماء الرجل وحده.

واحتج أصحاب القول الثاني بقوله ﷺ: «إذا غلب ماء الرجل يكون الولد ذكراً ويعود شبهه إلى الأب وإلى أقاربه وإذا غلب ماء المرأة فبالضد» وهذا صريح في أن الولد مخلوق من ماء الرجل وماء المرأة والله أعلم بحقائق مخلوقاته.

الصفة الثالثة: قوله تعالى في سورة النجم: ﴿وَأَنَّهُم خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ۝٤٥﴾ [النجم: 45 - 46]، وقال في سورة القيامة: ﴿أَلَمْ يَكُنْ نُطْفَةً مِّن مَّنًى يَمْنَىٰ ۝٣٧ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَثَلَاثَ يَوْمٍ ۝٣٨﴾ [القيامة: 37 - 38]، ولقائل أن يقول: ما الفائدة في قوله: من مني يمني مع إن كل مني يمني؟

والجواب - والله أعلم -: إن فيه تنبيهاً على حقارة حال المنى والتقدير أنه مخلوق من المنى الذي جرى على مخرج النجاسة فلا يليق بمثل هذا الشيء أن يتمرد على طاعة الله تعالى إلا أنه ﷺ عبّر عن هذا المقصود على سبيل الرمز والكناية، نظيره قوله تعالى في عيسى ابن مريم وأمه: ﴿كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ ۝٧٨﴾ [المائدة: 78]، والمراد بذلك قضاء الحاجة التي يحتاج الإنسان إلى خروجها منه، إلا أنه تعالى عبّر عن هذا المعنى بقوله: (كانا يأكلان الطعام) وكان الحسن البصري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول: كيف يليق التكبر والتبخر ممن مرّ على مجرى البول مرتين؟

الصفة الرابعة: قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَخْلُقْهُمْ مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ ۝١٥﴾ وأيضاً قال تعالى: ﴿وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنسَانِ مِن طِينٍ ۝٢﴾ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُم مِّن سُلَالَةٍ مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ ۝٣﴾ والمراد بكونه مهيناً وجوه ثلاثة:

الأول: قال مالك: أنه نجس رطباً ويابساً، وقال الشافعي: أنه طاهر رطباً ويابساً، وقال أبو حنيفة: أنه نجس رطباً طاهر يابساً. حجة الشافعي ﷺ من وجهين: الحجة الأولى أنه تعالى من بخلقنا منها قال: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِّن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ

﴿ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾ ولو كان نجساً لما حسن هذا الامتنان فإن ألزمونا العلقه والمضغة فنجيب عنه من وجهين:

الأول: أنا لا ندري ما حالها حينما تكون في الرحم.

الثاني: أن المني إنما يصير علقه ومضغة بسبب أنه يمتزج به دم الطمث والدم نجس فلهذا العارض حكمنا بالنجاسة، إلا أن أصل الامتنان بالتخليق منه يقتضي كونه طاهراً.

الحجة الثانية: أنه تعالى منّ علينا بأن جعل اللبن طاهراً لأجل أنه غذاء ومن المعلوم أن الحاجة إلى طهارة الذات أعظم من الحاجة إلى طهارة الغذاء، فلما منّ علينا بجعل اللبن الذي هو الغذاء طاهراً فبأن يمنّ علينا بطهارة المني الذي هو الأصل أولى. واعلم أنا وإن حكمنا بطهارته إلا أن العلماء لما اختلفوا في طهارته ونجاسته كان دليلاً على غاية حقارته ونهاية مهاتته.

الثاني: إن مهاتته لأجل كونه مستقذراً.

الثالث: مهاتته لأجل مروره على ممر النجاسة.

الصفة الخامسة: أنه تعالى أخبر عن الرحم الذي هو موضعه (قرار مكين) وهو قوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾. وفيه فوائد:

الفائدة الأولى: إن من ملأ كوزاً من الماء ثم قلبه انصب ذلك الماء ثم إنه أودع النطفة في قعر الرحم ثم خلق الرحم منكساً ثم حفظ فيه تلك النطفة بقدرته وحكمته وهذا وإن كان عجباً بالنظر إلى قدرتنا إلا أنه غير عجيب بالنظر إلى قدرته، وذلك أن أجرام السموات والأرضين والجبال والبحار أثقل بكثير من تلك القطرة كما قال تعالى: ﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾ [المؤمن: 57]، فالذي أمسك السماء والأرض بقدرته من غير علاقة فوقها ولا دعامة تحتها كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا﴾ [فاطر: 41]، فبأن يقدر على إمساك النطفة في قعر الرحم بقدرته كان أولى وأحرى.

الفائدة الثانية: أنه تعالى سمى الرحم قراراً مكيناً ومعلوم أن النطفة في الرحم ليست مستقرة بل بقيت معلقة في الهواء فكيف يجوز تسمية الرحم بالقرار المكين؟ وجوابه كأنه قيل: أنا أمسك النطفة في هواء الرحم بقدرتي كما يمسك الواحد منكم

الشيء الثقيل في مستقر الأرض، والمراد منه إظهار كمال القدرة ونظيره أنه تعالى سمي تخليق السماء بناء فقال تعالى: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً﴾ [البقرة: 22] والشيء المعلق في الهواء لا يسمى بناء إنما الشيء المستقر على القرار هو الذي يسمى بناء. إلا أن الجواب عنه كأنه قيل:

أنني لما أمسكت بقدرتي السماء في جو الهواء كان ذلك السكون جارياً مجرى الذي يكون مستقراً على الأرض ويبنى عليه البناء، والمقصود منه التنبيه على كمال قدرة الصانع ﷻ فكذا ها هنا سمي بالقرار المكين لتقرير هذا المعنى.

الفائدة الثالثة: وهو أن استقرار النطفة في الرحم إنما كان بسبب أنه ﷻ بقدرته وحكمته يحفظها، فلما كان المستقر هو القدرة الأزلية ولا شك أن القدرة الأزلية مبراة عن الخلل والعجز والزلل والنقصان لا جرم سمي السماء بناء والرحم قراراً، ونظيره قوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ [الرعد: 2]، يعني لها عمد غير مرئية وهي قدرة الله جل وعز وحفظه وحكمته والله أعلم.

الصفة السادسة: النطفة قوله تعالى في سورة الإنسان: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ [الإنسان: 2].

المشج في اللغة: الخلط، والأمشاج الأخلاط. قال صاحب الكشف: الأمشاج لفظ مفرد وليس بجمع بدليل أنه وقع صفة للمفرد وهي قوله: نطفة أمشاج ويقال أيضاً: نطفة مشج ولا يصح أن يكون أمشاج جمعاً للمشج بل هما مثلان في الأفراد نظيره برمة إفسار أي: قطع منكسرة وثوب أخلاق وأرض سباسب، واختلفوا في معنى كون النطفة مختلطة على وجهه:

الأول: أنه اختلاط نطفة الرجل بماء المرأة قال ابن عباس: ماء الرجل أبيض غليظ وماء المرأة أصفر رقيق فيختلطان ويخلق الولد منهما، فما كان من عصب وعروق وعظم فمن نطفة الرجل وما كان من لحم ودم فمن ماء المرأة، وقال الحسن: من نطفة مشجت بالدم وهو دم الحيض فإن المرأة إذا حصل ماء الرجل في رحمها وصلبها أمسك حيضها فاختلفت النطفة بالدم، وقال قتادة: الأمشاج هو أن يختلط الماء والدم أولاً ثم يصير علقة ومضغة وبالجمله فهو عبارة عن انتقال ذلك الجسم من صفة إلى صفة وحال إلى حال. وقال آخرون: الأمشاج عبارة عن كون النطفة مختلطة

من الأمهات الأربع والتقدير من نطفة ذات أمشاج وهذا دل على قدرة الله تعالى لأن الطبائع المتنافرة لا تجتمع إلا بقهر قاهر قادر، ثم إن كل واحد من تلك الطبائع منافية للحياة فبناء أمر الحياة عليها يكون إظهاراً للضد من الضد فتكون أدل على كمال القدرة ونظيره قوله تعالى في سورة يس: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ﴾ ويحتمل أيضاً أن يكون المراد ما ذكرنا من كون النطفة متولدة بعد الهضم من الأربع، فبعضها فيه خاصية العظم وبعضها فيه خاصية اللحم وخاصية العرق وتلك الأجزاء مختلطة ببعضها ببعض فيكون أمشاجاً بهذا التأويل.

المرتبة الثالثة: من مراتب خلق الإنسان صيرورته علقه، وزعم أصحاب التجارب أن المني في أول الأمر يصير كرة مستديرة ويبقى على كونه الأبيض في الرحم ستة أيام كما شرحناه ثم إنه يظهر بعد ذلك في الباطن أعلى مركز هذه الكرة مركز دموي وذلك الموضوع هو الذي ذكرنا أنه مجمع الأرواح وهو الذي إذا تمت خلقته كان قلباً فلهذا المعنى قالوا: إن أول عضو يتكون من البدن هو القلب، ثم يحصل بعد ذلك أيضاً نقطتان دمويتان إحداهما فوق، النقطة الأولى: وهي التي إذا استكملت خلقته كان دماغاً. النقطة الثانية: تحصل عن يمين النقطة الأولى وهي التي إذا استكملت خلقتها كانت كبداً، ثم إن هذه النقط الثلاثة تمتد في الصفات امتداداً وهذه الأحوال تحصل بعد ثلاثة أيام ثم بعد ستة أيام أخرى فتكون تسعة أيام من الابتداء، وقد يتقدم يوماً ويتأخر يوماً ثم بعد ستة أيام أخرى وهو الخامس عشر من العلوق بعد الدموية في الجميع فيصير علقه وربما تقدم يوماً أو يومين أو تأخر يوماً أو يومين فهذا شرح حال العلقه، ثم إن هاهنا أسراراً وفوائد:

الحكمة الأولى: أن من نقش نقشاً على شيء فإنه يحتاج إلى أمور:

الأول: أن يكون محل النقش جسماً صلباً كثيفاً وهاهنا الحق ﷻ وضع نقشه على الماء المهيّن.

الثاني: يجب أن يكون المكان الذي ينقش فيه واسعاً.

الثالث: أن يكون الموضع مضيئاً وهاهنا الحق ﷻ ينقش هذا النقش العجيب في الرحم وهو موضع ضيق فقال جل وعز: ﴿هُوَ الَّذِي يُمَوِّدُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ واستدل بهذا على إلهيته ووحدانيته فقال تعالى: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ

الْعَكِيمُ ﴿آل عمران: 18﴾ وأيضاً نقش هذا النقش في ظلمات الأرحام فقال في سورة الزمر: ﴿يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ذَٰلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ﴾ [الزمر: 6] فما أعظم درجة الإنسان وما أعجب خلقته وذلك لأنه لما ذكر حالاً من أحوال تخليقه ذكر عقيقه إما التهليل كما في الآيتين، وإما التعظيم والتقديس كما في قوله تعالى: ﴿فَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ﴾ [المؤمنون: 14].

الحكمة الثانية: إن كل نقاش وكاتب أراد أن يكتب شيئاً على جسم فإنه يكتب ذلك النقش على ظاهر ذلك الجسم ثم إنه يصل الأثر من الظاهر إلى الباطن، وهاهنا الحق ﷻ أظهر آثار كتابته ونقشه وتصويره في الباطن وهو ظهور النقط الثلاث الدموية في الباطن أولاً ثم سريانها من الباطن إلى الظاهر، وهذا ليعلم أنه كما أن ذاته وصفاته لا تشبه الذوات والصفات فكذلك أفعاله لا تشبه أفعال سائر الفاعلين وإن اشتبه عليك هذا في مبدأ الخلقة والقطرة فله مثال حاضر في الحال وذلك لأن الأعضاء الظاهرة لا تتحرك ولا تسكن إلا إذا حدثت في القلب داعية وإرادة لذلك الفعل، ومبعث ذلك الدواعي والإرادات في القلوب هو الله ﷻ وهو المراد بقوله تعالى: ﴿كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ﴾ [المجادلة: 22] وبقوله ﷻ: «قلوب العباد بيد الله»، وبقوله ﷻ: «قلب المؤمن بين إصبعين من أصابع الرحمن» فالحق ﷻ يكتب في القلب تلك الدواعي والإرادات ثم يتولد منها فنون الأفعال والحركات في ظاهر البدن، فظهر أن تأثير قدرة الله يظهر الآن في القلوب والضمائر أولاً ثم تسري تلك التأثيرات من البواطن والضمائر إلى الظواهر. ولما عرفت هذا المعنى في الحال فاعرف مثله في تخليق البدن في الابتداء.

الحكمة الثالثة: إن كل نقاش أبدع نقشاً حسناً لطيفاً فإنه يبالغ [في] (1) صون نقشه عن أربعة أشياء: عن التراب فإن الغبار يبطل رونق النقش ويزيل طراوته، وعن الماء فإنه يغسله ويزيله، وعن الرياح فإنها تكدر النفوس ويبطلها، وعن النار فإنها تحرق وتفنى ثم أنه ﷻ عكس هذه القضية فأظهر نقش خلقة البشر من التراب فقال تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ﴾ [آل عمران: 59] وأظهر نقش خلقة الدواب في الماء فقال تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِّن مَّاءٍ﴾ وأظهر خلقة عيسى ﷺ من الهواء فقال تعالى: ﴿فَنفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا﴾ [الأنبياء: 91]، وأيضاً جعل

(1) [في] الزيادة على الأصل.

النفخة سبباً لتخليق الحيوانات فقال تعالى: ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِ فَتَنْفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ﴾ [المائدة: 110]، وخلق الجان من النار فقال جل وعز: ﴿وَالْبَآنَ خَلَقْتَهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُورِ﴾ [الحجر: 27]، وذلك يدل على أن ما يفعله لا يشبه فعل أحد من الفاعلين.

الحكمة الرابعة: أنه ﷻ خلق القلب أولاً وذلك لأنه سرير الأرواح ومدرسة المعرفة وخانقات الصفوة ومنزل المحبة والنور الفاضل من خطاب ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [محمد: 19] لا يتجلى إلا فيه والكرامة الحاصلة من تشریف ﴿يُحْيِيهِمْ وَيُخَيِّطُهُمْ﴾ [المائدة: 54] لا تظهر إلا فيه والاستقرار المتولد من وعد ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد: 28] لا يحصل إلا فيه فلما كان هو المقصود في الثواب والعقاب والوعد والوعيد والترغيب والترهيب والتحذير، لا جرم كان هو المخلوق الأول ثم إنه خلق الدماغ فوقه والكبد تحته لأن الدماغ منشأ الفكر الذي هو الوساطة بين القلب وبين العالم العلوي والكبد منشأ الغذاء وهي الوساطة بين القلب وبين العالم السفلي فجعل العلوي في العلو والسفلي في السفلى تنبيهاً على هذه الدرجات.

الحكمة الخامسة: أن القلب سلطان البدن وليست سلطنته بسبب كبر الجثة وإلا لوجب أن يكون الفخذ أولى بهذه السلطنة، ولا بسبب الحدة وإلا لكانت المرارة أولى بها، ولا بسبب القوة وإلا لكانت العظام أولى بها، ولا بسبب كثرة الذخيرة وإلا لكانت المعدة أولى بها ولما تطلب جميع هذه الوجوه ولم تبق للقلب خاصية سوى كونه معدناً للعلم والحكمة والفهم والإدراك علمنا أنه إنما كان سلطان البدن لكونه موصوفاً بالعلم والحكمة وكانت سلطته بالعلم والحكمة والفهم والإدراك فعلمنا أنه من كان عالماً حكيماً كان سلطاناً بالحق ونائباً للحق بالخلق، وكل من كان محروماً عن العلم والحكمة كانت سلطنته في التلبس بمثابة إبليس.

الحكمة السادسة: أن الروح سلطان الجسد، وسرير الروح هو القلب، لا جرم كان القلب هو أول الأعضاء الحادثة في البدن، فنقول: لما كان الروح سلطاناً محتاجاً إلى سرير جسماني كان ذلك السرير أولى الأعضاء المكونة في البدن، فالحق ﷻ سلطان الموجودات فلو كان محتاجاً إلى سرير جسماني وهو العرش⁽¹⁾ أول المحدثات وأول المكونات لكنه ليس الأمر كذلك بنص القرآن والخبر أما نص القرآن فهو قوله

(1) لوجب على هذا القياس أن يكون العرش.

تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ [الأعراف: 54]، فبين تعالى أن الاستواء على العرش متأخر عن تخليق السموات والأرض، وأما الخبر فإنه روي: أنه عليه أفضل السلام قال: «أول ما خلق الله القلم» وفي رواية ثانية: «أول ما خلق الله العقل» وفي رواية ثالثة: «أول ما خلق الله نوري» وفي رواية رابعة: «أول ما خلق الله جوهرة ثم نظر إليها بعين الهيبة فصارت ماء»⁽¹⁾ وجميع هذه الروايات متطابقة على أن العرش ليس هو المخلوق أولاً وذلك يدل على كونه منزهاً عن العرش والكرسي والمكان والجهة.

الحكمة السابعة: أن القلب سلطان الجسد فكان أشرف أعضاء الجسد هو القلب، ثم إن المجسمة يقولون: كل موجود هو أشرف من غيره فوجب أن يكون أعلى من غيره فلما كان الحق أشرف الموجودات وجب أن يكون في مكان أعلى من جميع الموجودات، فها هنا القلب سلطان البدن وأشرف الأعضاء مع أنه ليس في أعلى موضع من مملكة البدن بل هو مستقر في الوسط فظهر بهذا فساد قول المجسمة أن الأشرف يكون في أعلى المكان والجهة بل هاهنا دقيقة أخرى وهي أن أحسن الأعضاء للبدن إنما هو الشعر والجلد والعظم وأعلى شيء في البدن هو هذه الثلاثة فعلمنا أن العلو لا يقتضي الشرف والسفل لا يقتضي الخسة.

الحكمة الثامنة: إن كل طباخ وضع اللحم الأحمر في قدر وطبخه فإنه تزول تلك الحمرة ويحدث البياض، وهاهنا الحق ﷻ وضع المنى الأبيض في قدر الرحم وطبخه بنار الطبيعة فانقلب الأبيض أحمر، وأيضاً كل أحد يسلط الحرارة على جسم لطيف فإن بسبب تلك الحرارة تزداد الرقة والرخاوة فالحق ﷻ قلب هذه القضية فسلط الحرارة على النطفة الرطبة فيصيرها منعقدة كثيفة قوية.

فإن قيل: إنما حصلت الكثافة والانعقاد لأن الحرارة لما عملت⁽²⁾ في تلك الرطوبة بحركتها فبقي الباقي صلباً يابساً، فنقول: إن كان⁽³⁾ الأمر كذلك وجب أن تؤثر

(1) رواه أبو يعلى: (2329) والبيهقي في السنن: 3/9 وفي الأسماء والصفات ص 378 والطبري في التفسير: 14/29 من حديث ابن عباس وهو حديث صحيح ورواه أحمد: 5/317 وأبو داود (4700) والترمذي (2156) من حديث عبادة بن الصامت.

(2) عملت في الأصل: علمت.

(3) [كان] زيادة يقتضيها السياق.

تلك الحرارة القائمة برحم المرأة وبسائر أعضائها في تجفيف تلك الأعضاء فإن تأثير تلك الحرارة في محلها أولى من تأثيرها في الجسم الأجنبي عنها المباين لها، فلما لم تؤثر تلك الحرارة في تجفيف تلك الأعضاء للألم وأثرت في تجفيف جوهر النطفة علمنا أن تأثيرها في أحد المحليين وعدم تأثيرها في المحل الثاني بتدبير مدبر المخلوقات وتقدير مقدر الكائنات فالطبائع معزولة والخواص باطلة والأفلاك معطلة والكواكب مسخرة ولا تأثير إلا للقدرة الأزلية ولا نفاذ إلا للمشئة السرمدية سبحانه وتعالى عن قول الظالمين علواً كبيراً.

وأما المرتبة الرابعة: فهي صيرورة العلقه مضغة فالمعنى أنه ينقلب ذلك الدم الجامد مضغة أي: قطعة لحم كأنها بمقدار ما يمضغ كالغرفة لما يغترف واعلم أننا بينا أنه يصير علقه في مدة خمسة عشر يوماً، ثم إنه بعد ذلك باثني عشر يوماً يصير مضغة وتتميز الأعضاء الثلاثة بعضها عن بعض وتمتد رطوبة النخاع وربما تقدم ذلك أو تأخر بيومين أو ثلاثة، ثم بعد تسعة أيام ينفصل الرأس عن المنكبين والأطراف عن الضلوع والنظر يميز بحسه في البعض ويخفى في البعض ويحس ذلك بعد تمام الأربعين في الأكثر وفي الآية أبحاث:

البحث الأول: وهو أن المضغة اسم للقطعة من اللحم فقوله تعالى: ﴿فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظْمًا﴾ [المؤمنون: 14] يقتضي تقديم اللحم الذي هو المضغة على تخليق العظام وقوله تعالى: ﴿فَكَسَوْنَا الْعِظْمَ لَحْمًا﴾ [المؤمنون: 14] يقتضي تقديم العظام على اللحم وذلك متناقض.

والجواب - وبالله التوفيق :- إن المضغة اسم للقطعة الممضوغة من اللحم فهذا الجسم المسمى بالمضغة لا يكون لحماً ألبته ولا يكون أملس السطح وذلك لأنه مركب من أجسام مختلفة الصورة، فبعضها يكون إذا استحكمت خلقته عظاماً وبعضها إذا استحكمت خلقته يكون عصباً وبعضها إذا استحكمت خلقته يكون عروفاً، ثم إن هذه الأجسام بعدما استحكمت خلقتها لم يتميز بعضها عن بعض تمام التمييز ولم تظهر فيها صلابة وكثافة بل هي باقية على الرخاوة وهي من حيث كونها لينه رخوة تشبه اللحم ومن حيث إنه لم تبق على كرتها وملاستها بل صارت أجساماً مختلفة الطبائع كان كاللحم الممضوغ ولهذا المعنى سمي الله تعالى هذا الجسم بمضغة في هذا الوقت.

البحث الثاني: أنه ﷺ وصف المُضغّة في سورة الحج فقال: ﴿ثَرَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخْلَقَةٍ وَغَيْرِ مُخْلَقَةٍ إِنْسَيْنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ﴾. والمُخْلَقَة: المسواة المنشأة الملساء من النقصان والعيب يقال: خلق السواك والعود إذا سواه وملّسه من قولهم صخرة خلقاء إذا كانت ملساء، ثم للمفسرين في المعنى أقوال:

الأول: أن يكون المراد من تمت فيه أحوال الخلق ومن لم تتم، كأنه ﷺ خلق المضغّة إلى قسمين: أحدهما تامة الصورة والحواس والتخاطيط، والثاني: الناقصة في هذه الأمور فبين تعالى أنه بعدما صيره مضغّة منها ما يخلقه إنساناً تاماً بلا نقص ومنها ما ليس كذلك، وهذا قول قتادة والضحاك فكأنه تعالى يخلق المُضغ متفاوتة منها ما هو تام خال عن العيوب ومنها ما تكون معيوبة ويتبع هذا التفاوت تفاوت الناس في خلقهم وصورهم وطولهم وقصرهم وتماهم ونقصانهم.

والقول الثاني: المخلقة الولد الذي يخرج حياً وغير المخلقة أي: غير المصورة وهو الذي يبقى لحمياً من غير تخطيط وشكل، واحتج أصحاب هذا القول بما روي عن علقمة عن عبد الله قال: «إذا وقعت النطفة في الرحم بعث الله ملكاً فقال الملك: يا رب مخلقة أم غير مخلقة؟ فإن قال: مخلقة قال: يا رب ما صفتها؟ أذكر أم أنثى؟ ما رزقها؟ ما أجلها؟ شقي أم سعيد؟ فيقول الله ﷻ: انطلق إلى أم الكتاب فاستنسخ منه صفة هذه النطفة، فينطلق الملك بذلك فيستنسخها ولا تزال النسخة معه حتى يأتي على آخر صفتها».

والقول الثالث: قال القفال: التخليق مأخوذ من الخلق فما تتابع عليه الخلق بعد الخلق حتى يتم فهو [المخلق]⁽¹⁾ وما لم يتم فهو غير المخلق لأنه لم تتوارد عليه التخليقات، واعلم أن القول الأول أقرب لأنه تعالى قال في أول الآية: ﴿فَإِنَّا خَلَقْنَاهُ﴾ [الحج: 5] وأشار إلى الناس فيجب أن تحمل مخلقة وغير مخلقة على من سيصير إنساناً وذلك يبعد في السقط لأنه قد يكون سقطاً ولم تتكامل في الخلقة.

فإن قيل: هلا حملتم ذلك على السقط لأجل قوله: ﴿وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ﴾ وذلك كالدلالة على أن فيه ما لا يقره في الرحم وهو السقط، قلنا: أن هذا لا يمنع من صحة ما ذكرنا في كون المضغّة مخلقة وغير مخلقة لأنه تعالى بعد أن تمّ

(1) الملحق في الأصل: المخلوق.

خلقة البعض ونقص خلقة البعض لا يجب أن يكمل ذلك فيه بل فيه ما يقره الله في الرحم وفيه ما لا يقره، وإن كان قد أظهر فيه خلقة الإنسان فيكون من هذا الوجه قد دخل فيه السقط.

أما قوله: ﴿لُنَبِّئَنَّ لَكُمْ﴾ فيه وجهان:

الأول: لنبين لكم أن انقسام المضغة إلى المخلقة وغير المخلقة يدل على أن المتولي لهذا التدبير ليس هو الطبع بل هو الصانع المختار.

الثاني: إن أول هذه الآية هو قوله تعالى: ﴿يَكْتُمُهَا النَّاسُ إِنْ كُتِمَ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعَثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاهُ مِن تَرَابٍ﴾ [الحج: 5]، فيكون المعنى: إنا أخبرناكم أننا خلقناكم من كذا وكذا لنبين لكم ما يزيل عنكم ذلك الريب في أمر بعثكم فإن القادر على هذه الأشياء كيف يعجز عن الإعادة؟ وأما قوله تعالى: ﴿وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَّا لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [الحج: 5]، والمراد منه أن من أقسام هذه المضغة من يبلغه الله تعالى حد الولادة والأجل المسمى هو الوقت المضروب للولادة وهو آخر ستة أشهر أو تسعة أشهر أو أربع سنين أو كما شاء الله وقدره⁽¹⁾ كما كتب ذلك الوقت المعين في اللوح المحفوظ صار ذلك أصلاً.

البحث الثالث: من مباحث هذا الموضوع أنا قد ذكرنا أن أصحاب التجارب زعموا أن في أربعين يوماً يصير الحال بحيث يتميز بعض الأعضاء عن البعض وفيه إشكال وذلك لأنه روي في الصحيح عن الأعمش عن زيد بن وهب عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ وهو الصادق الصدوق: «إن أحدكم يجمع في بطن أمه أربعين يوماً نطفة ثم يكون علقة مثل ذلك ثم يكون مضغة مثل ذلك ثم يرسل الله ملكاً ينفخ فيه الروح ويؤمر بأربع كلمات فيكتب رزقه وأجله وعمله وشقي أو سعيد، فوالله الذي لا إله إلا غيره إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى يكون بينه وبينها ذراع فيسبق عليه الكتاب فيختم له بعمل أهل النار فيدخلها، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيختم له بعمل أهل الجنة فيدخلها»⁽²⁾. فهذا الحديث يدل على أنها تبقى أربعين يوماً نطفة ثم تبقى أربعين

(1) وقدره في الأصل: وقدراته.

(2) رواه البخاري: (3208، 3332، 6594، 7454) ومسلم (2643).

يوماً علفة ثم تبقى أربعين يوماً مضغة وذلك على خلاف ما حكيتم عن أهل التجارب .

والجواب: أنه وإن انخلقت الأعضاء في مدة الأربعين إلا أن صورة العلفة والمضغة إنما تتم عند انقضاء الأربعينيات الثلاث فلا منافاة بين التجربة وبين كلام صاحب الشرع .

أما المرتبة الخامسة: وهي صيرورة المضغة عظاماً واعلم أن بدن الإنسان مركب من الأعضاء والأعضاء تنقسم إلى قسمين إلى أعضاء بسيطة ومركبة⁽¹⁾، فالأعضاء المركبة هو الذي لا يكون جزؤه المحسوس مساوياً لكليه في الاسم والحقيقة كاليد فإن كل جزء من أجزاء البدن لا يكون مساوياً لكل اليد في الاسم والحقيقة، وأما البسيطة فهي كالعظم فإن كل جزء من أجزائه المحسوسة يكون مساوياً لكليه في الاسم والحقيقة .

واعلم أن الأعضاء المركبة إنما تتركب من الأعضاء البسيطة فلهذا السبب لم يذكر الله تعالى في هذا المقام شيئاً من الأعضاء المركبة .

وأما الأعضاء البسيطة فهي عشرة: العظام والأعصاب والرباطات والأوتار والأوردة والشرابين والأغشية واللحم والشحم والجلد إلا أن أصل البدن وأساسه هو العظام فلهذا السبب خصّ الله تعالى العظام بالذكر في هذا الموضع .

واعلم أن العظام يمكن تقسيمها على وجهين :

الأول: أن العظام يحسب منافعها على أقسام :

أحدها: ما قياسه من البدن قياس الأساس وعليه منشؤه مثل فقار الصلب فإنه أساس البدن يبني كما تبني السفينة على الخشبة التي تنصب فيها أولاً .

وثانيها: ما قياسه من البدن قياس المجن والوقاية كعظم اليافوخ .

وثالثها: قياسه قياس الآلات التي تتم بها الأعمال . وهي عظام أصابع اليدين والرجلين ثم ما كان من هذه العظام إنما يحتاج إليه للدعامة أو للوقاية ولا يحتاج إليه

(1) في الأصل: مركب .

لتحريك الأعضاء فإنه خلق مصمتاً وما كان منها يحتاج إلى الحركة يقدر في مقدار تجويفه وجعل تجويفه في الوسط واحداً ليكون جرمه صلباً ولا يصير رخواً بسبب كثرة المنافذ ثم جعل المخ في وسطه ليرطبه ويمنعه التيبس المعفنة وفائدة زيادة التجويف أن يكون أخف وفائدة توحيد التجويف أن يبقى جرمه أصلب وفائدة صلابة جرمه لئلا ينكسر عند الحركات العنيفة.

القسم الثاني: للعظام إنما بحسب تجاورها على أقسام:

فأحدها: ما يتجاور مفصل سلس وهو الذي لأجل عظمته أن يتحرك حركاته سهلاً من غير أن يتحرك منه العظم الآخر كعظام الأصابع مع الكف ومفصل الرسغ مع الساعد.

وثانيها: ما يتجاور تجاور مفصل عسر غير موثق وهو كعظام فقرات الظهر في النصف الأعلى من الظهر ولولا ذلك لما قدر الإنسان تارة على أن ينتصب انتصاباً وتارة يصير منحنياً كما في وقت الركوع فأما النصف الأسفل من الظهر فأصل عظامه موثقة محكمة.

وثالثها: أن يكون المفصل موثقاً ليس لأحد عظميه أن يتحرك وحده ألبتة مثل مفصل عظام السن.

ورابعها⁽¹⁾: المركز وهو ما توجد لأحد العظمين زيادة والثاني ثغرة يركز فيها تلك الزيادة ارتكازاً لا يتحرك فيها بميل الإنسان.

وخامسها: المدرور وهو الذي يكون لكل واحد من العظمين أسنان كما للمنشار وتكون أسنان كل واحد منهما مهندمة في تحاريز الآخر كما يركب الصفارون صفائح النحاس كمفاصل القحف.

وسادسها: أن تكون العظام متلاصقة فمنها ما هي متلاصقة طولاً مثل مفصل ما بين عظمي الساعد، ومنها ما هو ملصق عرضاً مثل مفصل الفقرات السفلى من فقار الصلب.

(1) في الأصل: وثالثها وهو سهو من الناسخ.

واعلم أن عظام البدن جملتها مئتان وثمانية وأربعون عظماً، فأما عظام الرأس فخمسة وخمسون سبعة هي عظام اليافوخ وأربعة عشر عظام اللحي الأعلى واثنان هي اللحيان السفليان واثنان وثلاثون سناً فالمجموع خمسة وخمسون، وأما حرزات الظهر فتسعة وعشرون سبعة للعنق وأحد عشر تتصل بها الأضلاع وخمسة هي العطن وثلاثة العجز وثلاثة العصعص، وأما الأضلاع فأربعة وعشرون من كل جانب اثنا عشر والعص، مؤلف من عظام سبعة الترقويان عظمان موضوعان على كل واحد من جانبي العص واليدان معلومتان وكل واحد من اليدين مؤلف من واحد وثلاثين عظماً العضد وطره والساعد وهما عظمان ملتصقان بالطول والكف وهي اثنا عشر والرسغ وهو صفان في كل صف أربعة والمشط أربعة أخرى والأصابع خمسة عشر فالمجموع واحد وثلاثون ومجموع عظام اليدين اثنان وستون، وعند العانة عظمان وفخذان وطرهما والرصفتان، وعظام القدم سبعة وعشرون فهذا مجموع عظام البدن والكلام فيها وفي منافعها طويل، والنكتة الظاهرة في كيفية الاستدلال بهذه الحالة على الصانع تعالى أن العظام أجسام صلبة قوية فكيف تولدت من النطفة السخيفة الرقيقة؟ وأيضاً فهذه العظام مختلفة فمنها صغير وكبير وطويل ومستدير ومجوف ومصمت وعريض ودقيق فاللائق بكل موضع من مواضع البدن عظم مخصوص لو حصل في ذلك المكان عظم آخر لاختلت المصالح بالطبيعة التي لا شعور لها ولا إدراك كيف يمكن إسناد تخليق هذه الأعضاء إليها؟ وكيف يعقل أن يقال: أن هذه الطبيعة رتبت هذه الأعضاء بهذا الترتيب الموافق للمصلحة وأن هذا مما لا يعقله العقل بل الفطر السليمة والطباع المستقيمة تشهد بأن تخليق هذه الأعضاء لم يصدر إلا عن الصانع الحكيم المدبر العليم.

أما المرتبة السادسة: وهي قوله تعالى: ﴿فَكَسَوْنَا الْوُطُنَ لَحْمًا﴾.

اعلم أن أهل التشريح ذكروا أن جميع عضل البدن خمسمائة وتسع⁽¹⁾ وعشرون عضلة.

واعلم أن الخالق ﷻ لما اقتضت حكمته أن يجعل منبع قوة الحس والحركة هو الدماغ وتكون الآلة الحاصلة بين القوتين من الدماغ هو العصب ثم كانت العصب لا يحسن اتصالها بالعظام [التي هي بالحقيقة أصول الأعضاء المتحركة]⁽²⁾ لأن العظام

(1) في المخطوط وتسعة وهو سهو الناسخ.

(2) زيادة من (ب).

صلبة والعصب لطيف فأنبت الخالق بحكمته من العظام شيئاً شبيهاً بالعصب يسمى رباطاً فجمعه مع العصب وشبك به كشيء واحد، إلا أن هذا الجرم الملتئم من العصب ومن الرباط كان دقيقاً أيضاً فدبر الخالق في ذلك بأن جعل ذلك الجرم مقوساً وملاً خلله لحماً وغشاه غشاءً دقيقاً صلباً، وجعل في وسطه شيئاً كالمحور من جملة العصب فهذا العضو هو العضلة، وفيه فوائد كثيرة:

إحداها: أنه لما فيه من اللحم منشأ لمنافع كثيرة منها أن يكون حشواً يخلل الفرج الحاصلة بين العظام، ومنها أن اللحم متولدة من الدم الذي هو حار رطب فيكون اللحم سبباً لزيادة السخونة في الأعضاء مثل حشو الجبة. ومنها أن يكون حائلاً بين عظام البدن وبعضها مع بعض. ومنها أن يكون حائلاً بين عظام البدن وبين الأجسام الصلبة الخارجة عن البدن ويكون ذلك اللحم شبيهاً بالمغربة⁽¹⁾ اللينة التي يجلس الإنسان عليها فلا يتألم بسبب المصاكة الحاصلة بين عظام البدن وبين الأجسام الصلبة الموجودة من الخارج.

والفائدة الثانية: أن هذه العضلات [بسبب ما فيها]⁽²⁾ من شظايا العصبية يجري قوة الحس والحركة فيتمكن الإنسان بسببها من الحركات الإرادية والأفعال الاختيارية.

والفائدة الثالثة: أن هذه العضلات بسبب ما فيها من شظايا الرباط وبسبب كونها مجللة بهذه الأغشية الصلبة تكون صلبة قوية لا تعرض لها الانهتاك⁽³⁾ والانقطاع سريعاً فهذه إشارة مختصرة إلى منافع هذه العضلات.

وأما المرتبة السادسة: فاللحم، قال الله تعالى: ﴿فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا﴾ فإن قيل أنه تعالى ذكر في جميع المراتب لفظ الخلق فقال:

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ﴾ (١٧) ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا النَّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظْمًا [المؤمنون: 12-14].

وفي هذه المرتبة لم يذكر لفظ الخلق بل قال: ﴿فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا﴾ فما السبب؟!

(1) المغربة كساء ذو طاقين بينهما قطن.

(2) زيادة من (ب).

(3) الانهتاك في (ب) الانفكاك.

قلنا: السبب فيه أن العظام والأعصاب والعروق أعضاء أصلية متولدة من النطفة ولذلك إذا بطل لا تعود، وأما اللحم فإنه ليس من الأعضاء الأصلية ولذلك فإنه إذا ذهب بالهزال عاد بالسمن مرة أخرى، وهو إنما يتولد من دم الطمث لا من المني فلما كان الأمر كذلك لا جرم جعل اللحم كالكسوة للأعضاء الأصلية. وأيضاً فقد ذكرنا أن فائدة اللحم أفادت السخونة للأعضاء وأن تكون كالمغربة اللينة التي إذا جلس الإنسان عليها لم يتألم بسبب المصاكة الحاصلة بين عظامه وبين الأجسام الصلبة الخارجية وهذه المنافع والفوائد شبيهة⁽¹⁾ بالفوائد المطلوبة من الثياب الملبوسة، فلهذا السبب ذكر في هذه المرتبة لفظ الكسوة فسبحان من له تحت [كل]⁽²⁾ كلمة من كلمات هذا الكتاب الكريم سر شريف ونكتة روحانية.

أما المرتبة السابعة: وهو قوله: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ﴾ فاعلم أن المراد بالخلق الآخر قولان:

الأول: المراد نفخ الروح وزعموا أن الروح ليس من جنس البدن فلهذا المعنى جعل هذه المرتبة نوعاً آخر من الخلق مغايراً للمراتب المتقدمة واحتجوا عليه بوجوه من المعقول:

الحجة الأولى: أن المراتب المذكورة لا يكمل الانتفاع بها إلا بنفخ الروح فوجب في الحكمة ذكر الروح عقب تلك المراتب والمذكور عقب تلك المنافع هو قوله تعالى:

﴿ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ﴾ فدل على أن المراد نفخ الروح فلما عبّر عن نفخ الروح بأنه خلق آخر علم أن الروح ليس من جنس البدن.

الحجة الثانية: قوله تعالى: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُمْ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي﴾ فالتسوية عبارة عن تخليق الأبعاد والأعضاء ونفخ الروح فيه إشارة إلى تعلق الروح بالبدن. ثم إنه تعالى لما أضاف الروح إلى نفسه دلّ على أنه متميز في ذاته بمزيد شرف لا يحصل مثله للأجسام.

(1) شبيهة: في الأصل شبيه.

(2) زيادة يقتضيها السياق.

الحجة الثالثة: أنه تعالى مَيَّز بين عالم الأرواح وعالم الأجسام فقال: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ [الأعراف: 54] فجعل التباين بين هذين النوعين ثم أنه تعالى حكم بأن الروح من عالم الأمر فقال: ﴿قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ ثم بين أنه لا سبيل للبشر إلى معرفته فقال: ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ ولو كانت من جملة الأجسام لما صحت هذه الأحوال.

الحجة الرابعة: أنه تعالى أضاف الأفعال إلى النفس فقال: ﴿إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ﴾ [يوسف: 53] وقال: ﴿وَلَا أَقِيمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَامَةِ﴾ وقال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً﴾ [الفجر: 27-28] ومعلوم أن جميع الأجزاء البدنية ليس مبدءاً للأفعال فلمنا أن النفس يدبر البدن وهو غير البدن.

الحجة الخامسة: قوله تعالى: ﴿أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ﴾ وهذا [صريح] ⁽¹⁾ في أن النفس شيء مغاير للبدن تارة تدخل البدن وتارة تخرج منه.

الحجة السادسة: قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ﴾ وكل أحد لا ينسى هذا الهيكل الذي يشاهده بحواسه فدل على أن تلك النفس التي ينساها الإنسان عند فرط جهله شيء آخر غير هذا البدن.

الحجة السابعة: قوله تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا﴾ ⁽²⁾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا [الشمس: 7-8] وهذا صريح في أن هنا نفساً هي محل الإلهامات ومحل الفجور والتقوى، ومعلوم أن كل واحد من أجزاء البدن وأبعاضه ليس كذلك فهذه النفس شيء مغاير لهذه الأعضاء.

الحجة الثامنة: القرآن دال على أن الشيء المشار إليه بأنه هو الإنسان المخصوص باقى ⁽²⁾ بعد الموت قال تعالى في صفة الشهداء: ﴿وَلَا تَحْزَنْ أَلِ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ وقال في صفة المعذبين: ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾ وقال تعالى: ﴿أَغْرِقُوا فَأَدْخِلُوا نَارًا﴾ [نوح: 25] وقال ﷺ: «أنبياء الله لا يموتون ولكنهم ينقلون من دار إلى دار» فثبت أن الشيء المشار إليه بأنه هو الإنسان باقى بعد الموت للبدن حتى يدرك الآلام واللذات. وأما أن هذا البدن المشار إليه ليس

(1) (صريح) زيادة يقتضيها السياق.

(2) باقى في الأصل (باقي).

حياً بعد الموت فهو معلوم بالضرورة فلو جَوَزنا كونه حياً لجاز مثله في جميع الجمادات وهو سفسطة وإذا لاحت المقدمتان علمنا أن المشار إليه بقولنا هذا الإنسان ليس هو هذا البدن.

الحجة التاسعة: قوله ﷺ: «من عرف نفسه فقد عرف ربه»⁽¹⁾ وكان في كتب الله المنزلة: «اعرف نفسك تعرف ربك» ولو كان المراد من النفس هو هذا الجسد المشاهد لما أمرنا بمعرفته لأن معرفته حاصلة بالضرورة والحاصل لا يمكن تحصيله.

الحجة العاشرة: أنا نجد من أنفسنا أنا نضيف كل واحد من هذه الأعضاء إلى أنفسنا فنقول: يدي ورجلي وقلبي ودماعي. والمضاف غير المضاف إليه فعلمنا أن النفس غير هذه الأعضاء. فإن قالوا: فقد يقولون نفسي وذاتي وهذا يقتضي أن تكون نفس الشيء مغايرة لنفسه وهو محال: وجوابه أنا إذا أضفنا النفس والذات إلينا كان المراد من النفس والذات هو البدن وهو مغاير لذلك الشيء المشار إليه بأنه هو الإنسان. فهذه استدلالات سمعية على إثبات النفس، ولمن أنكر النفس أن يجيب عن الكل بجواب واحد وهو أنه لا نزاع أن النفس شيء مغاير لهذا البدن المحسوس. وكيف لا نقول ذلك والإنسان قد يمرض فيذبل غاية الذبول ثم يبرأ فيسمن بعد ذلك غاية السمن والإنسان واحد في الحالتين مع أن أجزاء البدن متبدلة. لكنه لم لا يجوز أن يقال البدن منقسم إلى قسمين: أحدهما أجزاء أصلية باقية من أول الخلقة إلى آخرها، والثاني أجزاء متبدلة عرضية يطرأ ويزول فالإنسان عبارة عن تلك الأجزاء الأصلية فهذا ما في هذا البحث.

إذا عرفت هذا فنقول: إذا حملنا قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ﴾ على الروح فيها هنا لطائف:

الأولى: قال بعضهم: أنه خلق الأرواح من أنوار عالم الجمال والجلال [فالقوة النظرية مع ما فيها من بهجة المعرفة والمحبة من عالم الجمال]⁽²⁾ والقوة العملية المدبرة للبدن من عالم الجلال ولولا أن أنوار الأرواح مستورة بظلمات الأجساد وإلا لسجد لها كل كافر.

(1) لا أصل له من كلام رسول الله، انظر المقاصد الحسنة وغيرها. بل هو موضوع كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية، وقال النووي: ليس بثابت، وانظر كشف الخفاء (2/262).

(2) زيادة من (ب).

الثانية: قال بعضهم: الله تعالى خلق الأرواح من النور والطيب والنقاء والعلوم والعلو والحياة، أما النور فلأنه ما دام الروح في الجسد نورانياً فالعينان تبصران والأذنان تسمعان واللسان يتكلم والقلب يفهم والدماغ يتفكر، فهذا يدل على (أن)⁽¹⁾ الروح من عالم الأنوار والدليل على أنه من جوهر الطيب أنه ما دام الروح في الجسد يكون الجسد مصوناً عن الفساد والتفرك والانحلال، والدليل على أنه من جوهر العلو أنه ما دام الروح في البدن يكون البدن مرتفعاً عن الأرض غير ملتصق بها وكلما ازداد الروح قوة ازداد الارتفاع ألا ترى أن الإنسان عند استيلاء أنوار عالم الروحانيات على روحه يأخذ في الرقص. والسبب فيه أنه قوة روحانية فصارت تلك القوة الروحانية جاذبة من الأرض إلى عالم السموات والأنبياء عليهم السلام لما كملت هذه الأحوال منهم صعدوا إلى السموات فقال تعالى: ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ [آل عمران: 55] وقال في حق محمد ﷺ: ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى﴾ والدليل على أنه من جوهر العلم أن محل العلم هو الروح وذلك لأن العلوم نفوس علوية غيبية طاهرة مقدسة فلا يكون محلها إلا الجوهر القدسي العلوي. والدليل على أنه من جوهر الحياة أنه متى انقطع أثره عن جزء من أجزاء البدن صار ذلك الجزء ميتاً كما في المفلوج، وإن تعلق بجميع البدن صار كله حياً وبالجمله فالروح كالشمس والحياة كالنور الفائضة عن الشمس وذلك (كما أن)⁽²⁾ كل جسم وصل إليه نور الشمس انقلبت أحواله من الظلمة إلى الضياء كذلك كل عضو يصل إليه نور الروح انقلبت حاله من الموت إلى الحياة.

النكتة الثانية: دلالة ارتباط تدبير هذا البدن بالروح على افتقار كل العالم إلى الصانع في غاية الظهور وذلك لأن هذا البدن مملكة صغيرة جداً وإذا كانت هذه المملكة الصغيرة لا يعقل استغناؤها عن ملك مطاع فيه فكل العالم الذي هو المملكة الكبرى كيف يمكن استغناؤها عن مدبر يديرها ومتصرف يتصرف فيها. وكما أن المدبر في هذه المملكة الكبرى يجب أن يكون واحداً فكذلك في عالم الصغرى.

والنكتة الثالثة: أن المؤمن بذاته علوي وبصفاته علوي: أما ذاته فكقوله تعالى:

(1) (أن) زيادة يقتضيها السياق.

(2) زيادة يقتضيها السياق.

﴿وَلَا تَهْمُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ﴾ وقال: ﴿يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ [المجادلة: 11] وأيضاً أفعاله وأقواله علوية قال تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ [ناظر: 10] وكتابه علوي: ﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَنْبَرِ لَفِي عِثَّةٍ﴾ [المطففين: 18] ﴿وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا﴾ [التوبة: 40] وأما الكافر فكلّمته سفلية⁽¹⁾ قال الله تعالى: ﴿فَارْأَوْا بِهِ كَيْدًا جَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ﴾ [الصفات: 98] وأفعاله سفلية: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفْعَلُ لَهُمْ أَوْبُ السَّمَاءِ﴾ [الأعراف: 40]، وكتابه سفلي: ﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَارِ لَفِي سِجِّينٍ﴾ [المطففين: 7] فإيا أيها المؤمن العلوي لا تجعل روحك سفلياً بالمعصية، وإيا أيها النوراني لا تجعل نفسك ظلمانية بالإعراض عن الله، ثم أنه تعالى بيّن من خلقتك أن العلوي أشرف من السفلي والروحاني أفضل من الجسماني وذلك لأنه خلق فيك أعضاء علوية وأعضاء سفلية: أما العلوية فالقلب والعين واللسان، وأما السفلية فالبطن والمخرجان، فمن استعمل العين في العبرة واللسان في الحكمة والقلب في المعرفة صار علوياً شريفاً، ومن استعمل البطن في أكل الحرام والفرج في الزنا والحرام صار سفلياً خسيساً، ثم أكد هذه الدلالة بأن جعل الرئة التي هي معدن النفس الصاعد فوقانياً والمعدة التي هي معدن الهابط سفلياً ليعلم أن كل من كان علوياً سماوياً فهو الشريف وما كان أرضياً سفلياً فهو الخسيس.

والنكتة الرابعة: الروح محل العلم ويجب أن يعلم أن الموجودات على ثلاثة أقسام: موجود لا يجوز أن لا يعلم وهو الله ﷻ، وموجود لا يجوز أن يعلم وهو الجماد، وموجود يجوز أن يعلم ويجوز أن لا يعلم وهو أنت، فإن صرت أن تعلم شيئاً فقد تخلقت بأخلاق الله وإن صرت لا تعلم شيئاً فقد صرت مشابهاً للجمادات فامتيازك عن الجمادات والتحاقك بزمرة الملائكة المقربين وملازمتك لجنة⁽²⁾ رب العالمين إنما حصل بسبب إيصال الروح بالبدن وعند هذا يظهر منقبة الروح وفضيلته.

القول الثاني: أن المراد من قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ﴾ تخليق الأعضاء الجسمانية.

واعلم أن تمام الكلام في شرح قدرة الله تعالى وحكمته في خلق الإنسان قد

(1) (سفلية) في الأصل (سفلي).

(2) لجنة رب العالمين في (ب) لعتبة رب العالمين.

ذكرنا في علم التشريح في الطب الكبير، ولنذكرها هنا نكتاً قليلة من المنافع الظاهرة الجليلة التي يصل إليها فهم كل أحد فنقول: انظر إلى النطفة وهي قطرة قدرة من الماء لو تركت ساعة لتضربها الهواء بطلت وفسدت كيف أخرجها رب الأرباب من بين الصلب والترائب، وذلك لأنه سبحانه أوقع الألفة والمحبة في قلوبهم ثم قادهم بسلسلة الشهوة والمحبة إلى الاجتماع ثم استخرج النطفة من الرجل بحركة الوقاع واستخرج دم الحيض من أعماق العروق وجمعها في الرحم ثم خلق المولود من النطفة وسقاه بماء الحيض حتى نما وربا، وكيف جعل النطفة وهي بيضاء مشرقة علقه حمراء ثم جعلها مضغة ثم قسم أجزاء المضغة إلى العظام والأعصاب والعروق والأوتار واللحم في داخل الرحم في الظلمات الثلاث، ولو انكشف الغطاء والغشاء لكنت ترى التخطيط والتصوير يظهر في النطفة شيئاً فشيئاً ولا ترى المصور ولا قلمه ولا آتته، فهل رأيت مصوراً وفاعلاً لا يمشي إليه مصوره ولا يلاقيه؟! فسبحانه ما أعظم شأنه. ولئن شأها هنا إلى قليل من تشريح الأعضاء، أما الرأس فتأمل أنه ﷻ دورها وشق سمعها وبصرها وأنفها وفمها وأنه تعالى ركب كرة الرأس في بطن الأم من ثلاثة وعشرين عظماً وخلق تلك العظام على كيفية مختلفة فكيف تولدت العظام الصلبة من النطفة السخيفة الرقيقة؟ ثم إنه سبحانه قدر كل واحد من تلك العظام بشكل مخصوص ومقدار مخصوص ووضع مخصوص، ولو وقع بخلاف ذلك لبطلت المنفعة وفات الغرض ثم ركب بعضاً مع بعض بحيث يحصل من مجموعهما كرة الرأس على هذه الخلقة المخصوصة.

واعلم أنه تعالى إنما يظهر الاحتياط في عظم الرأس لأجل أن الدماغ أشرف أعضاء الإنسان فإنه محل الفكر والعقل ولما كان في غاية الشرف فإنه [صانه بسبعة]⁽¹⁾ أنواع من الصوانات وذلك لأن الدماغ يحيط⁽²⁾ به غشاء رقيق يقال له غشاء السمن وفوق ذلك الغشاء غشاء آخر صلب وهو ملتصق بمقعر عظم اليافوخ، ثم فوقهما عظم اليافوخ ثم خلق خارج العظم غشاء آخر يقال له السحماق وفوق هذا⁽³⁾ الغشاء طبقة لحمية وفوق تلك الطبقة اللحمية الجلد وفوق الجلد الشعر فتأمل أنه تعالى خلق فوق دماغك سبع طبقات جارية مجرى السموات السبع.

(1) صانه بسبعة) في (أ) (صنع).

(2) يحيط في (أ) يحيط.

(3) هذا في (أ) هذه.

والمقصود من تخليقها الاحتياط في صون دماغك عن الآفات. والمقصود من تخليق دماغك أن تكون من المتفكرين في دلائل الله المتأملين في مخلوقاته لتستدل بها على جلالة خالقها وحكمة باريها. ولنذكر الآن بعض صفات الدماغ فنقول أنه تعالى قسمه في طوله إلى ثلاثة أقسام وجعل القسم المقدم محل الحفظ والتخيل والبطن المتوسط محل التأمل والتفكير وجعل البطن المؤخر محل الاسترجاع والتذكر، وكل واحد من هذه الأحوال الثلاثة أمور مهمة للإنسان لا يحصل الانتفاع بالإنسانية إلا معها. أما الحفظ والتخيل فأمر لا بد منه في الإنسانية ويدل عليه وجوه:

الأول: إن الإنسان محتاج إلى التفهم، والتفهم بالكلام، والكلام مركب من الحروف وهذه الحروف لا توجد مجتمعة ألبتة بل متعاقبة فلو لم يكن الإنسان حافظاً لصور المحسوسات بعد غيوبيتها لكان الإنسان إذا سمع حرفاً ثم انقضى ذلك الحرف الأول ووجد الحرف الثاني فعند حصول الحرف الثاني لا يكون الحرف الأول موجوداً في الخارج ولا يكون أثره أيضاً باقياً في الحفظ فحينئذ لا يكون المسموع أبداً إلا حرفاً واحداً والحرف الواحد لا يفيد المعنى ألبتة فثبت أنه لولا الحفظ ما كان يحصل التفهم والتفهم بالكلام فكانت هذه المصلحة تختل وتبطل.

الثاني: إن الإنسان إذا رأى شيئاً ثم غاب عنه ثم رآه مرة أخرى عرف أن هذا الذي يراه الآن هو الذي رآه قبل ذلك، وذلك لأنه لما رآه في المرة الأولى ثم غاب عنه بقيت صورته في الحفظ فلما رآه مرة ثانية صارت هذه الصورة المحسوسة ثانياً منطبقة على تلك الصورة المحفوظة في الخيال فيحصل الشعور بأن هذا الذي يراه الآن هو الذي رآه قبل ذلك فلولا القوة الحافظة لما حصل هذا المعنى ولو لم يحصل هذا المعنى لاختل نظام العالم فما كان يعرف الزوج وزوجته ولا السيد عبده واحتاج كل أحد إلى أن يعرف حال كل شخص في كل أمر يراه.

الثالث: أن خاصية الإنسان أن يتوسل بالفكر إلى أن يصير المجهول معلوماً، والفكر عبارة عن تركيب الأشياء الحاضرة في الذهن ليتوصل بتركيبها حضور مجهول لمعلوم ولا معنى لحضور الأشياء في الأذهان إلا حضور مثلها وأشباهاها في القوة الحافظة، فالقوة الحافظة في دماغك جارية مجرى اللوح المحفوظ في عالم السموات وبقاء صور المحسوسات في خيالك نسبة بقاء كتبة أحوال المخلوقات في اللوح المحفوظ فثبت بما ذكرنا أن القوة الحافظة من أعظم نعم الله على الإنسان. ثم فيه أمر

آخر عجيب لا يعرفه إلا الله سبحانه وذلك لأن هذه الصور الذي نتخيلها ونشاهدها حال ما نشاهدها وحال ما نستحضرها إما أنه يقال أنها موجودة أو يقال أنها معدومة، والقول بكونها معدومة باطل لأننا نميز بين كل واحد منها وبين غيرها بل كأننا نشاهدها وننظر إليها حاضراً⁽¹⁾ في خيالنا فإننا إذا نظرنا إلى قرص الشمس ثم غمضنا العين فإننا نشاهد قرص الشمس حاضراً في خيالنا كأننا ننظر إليه فثبت أنها موجودة. ثم قال قوم أن محل هذه الصورة الخيالية بمقدم دماغنا، وقال آخرون بل مقدم الدماغ آلة في هذا العمل ومحل هذه الصورة جوهر الروح والروح ليس بجسم ولا جسماني وكل واحد من القولين عجيب جداً.

أما الأول: فهو أن مقدم الدماغ [جسم]⁽²⁾ صغير جداً فكيف ارتسم في ذلك الجسم الصغير صور السموات والأرضين والشمس والقمر وصور البلدان المسالك والممالك؟!، والإنسان أيضاً ربما يحفظ كتباً كثيرة، فكيف اتسع ذلك الجسم الصغير لهذه الصور العظيمة؟ وقد يحفظ الكلمات التي سمعها من أول عمره مع كثرتها فكيف ارتسمت هذه الصور الكثيرة في هذا الجسم الصغير من غير أن يختلط شيء من هذه (الصور)⁽³⁾ بعضها ببعض؟ ولا شك أنها من العجائب التي لا يعرفها إلا المدبر الخالق.

والقول الثاني: وهو أن محل هذه الصور جوهر الروح وهو ليس بجسم ولا جسماني فهذا أعجب لأن هذه الصور لها أطوال وعروض وامتداد في الجهات والأحياز فكيف يعقل حلولها في شيء وليس لها طول ولا عرض ولا امتداد في الجهات وبالجمله فنحن نعلم بالضرورة أننا نحفظ صور هذه المحسوسات، وإذا أردنا أن نعلم أننا كيف نحفظها عجزنا عن ذلك فسبحان الخالق الحكيم، ومن جملة نعم الله ﷻ علينا في كيفية هذا الحفظ أنه جعل الحافظ بصور المحسوسات الخمسة شيئاً واحداً والفائدة فيه أننا إذا سمعنا صوتاً علمنا ذلك الشخص لأن القوة الحافظة تعلم أن الذي له هذا الصوت ذلك الشخص فحينئذ تفيد السمع فائدة البصر ويقوم كل واحد من الحواس الخمس مقام الآخر.

(1) حاضراً في الأصل (حاك).

(2) (جسم) في الأصل (في جسم).

(3) (الصور) في الأصل (النفوس).

وأما البطن الأوسط من الدماغ: فهو محل الفكر ومعنى الفكر أن تتركب القوة المفكرة شيئين من الأشياء الحاضرة عند قوة الحافظة فيصير ذلك التركيب سبباً لاستجلاب صورة جديدة عند العقل. وجميع التركيبات التي أحدثها أهل الدنيا في بناء المساكن واستخراج الحرف والصناعات فهو من أعمال القوة المفكرة فالقوة المفكرة تستخرج تلك الصور بهذا الطريق، ثم إن القوة العملية تنقل تلك الصور من الأفكار إلى الخارج ومن المعلوم أنه لولا الفكر لما اهتدى الإنسان إلى تحصيل المصالح ودفع الآفات وهما أعظم النعم بخلق القوة المفكرة ومن أراد أن يعرف قدر هذه النعمة فلينظر إلى البهائم والمجانين. واعلم أن (القوة)⁽¹⁾ المفكرة كالعلم والقوة الحافظة كاللوح فإن القوة المفكرة إذا استنبطت صورة جديدة ارتسمت تلك الصورة في لوح الخيال فكان المثبت هو الفكرة والقابل هو الخيال فكانت المفكرة قلماً والحافظة لوحاً.

واعلم أنا وإن كنا نعلم بالضرورة أنا نتفكر إلا أننا إذا أردنا أن نعلم هذا الفكر ما هو صعب علينا ذلك، فإن هذا الذي طلبناه هل نعلمه أم لا فإن علمنا فكيف نطلب العلم به وإن لم نعلمه فكيف يمكننا طلب شيء لم يخطر ذلك الشيء ببالنا.

وأما البطن الآخر من الدماغ: فهو التذكر ومعنى التذكر أن من حضر في ذهنه أمر من الأمور ثم غاب عنه فإنه يستوحيه بعد غيبوبته، وهذه الحالة حاصلة للإنسان فإنه ليس كل ما رآه الإنسان وسمعه في مدة عمره فإنه يكون حاضراً في خياله بل أكثر هذه الصور في أكثر الأحوال غير حاضرة في الذهن لكنها وإن كانت غائبة إلا أن الإنسان متى أراد استحضارها قدر عليه فهذا الاستحضار هو التفكير، ولا شك أن خلق هذه القوة نعمة عظيمة من الله على الإنسان.

واعلم أيضاً أن هاهنا حالة عجيبة تعجز العقول البشرية عن معرفة كيفيتها وذلك لأن هذه الصورة إذا كانت غير حاضرة فتذكرها عبارة عن طلب رجوعها، فهذا الطلب إما أن يكون طلباً لتلك الصورة بعينها أو يكون طلباً لصورة ما مبهمة أية صورة كانت، فإن كان الأول فهو محال لأنها غير معلومة بعينها إذ لو كانت معلومة بعينها لكانت حاضرة فما كان الإنسان يحتاج إلى طلبها وامتنع طلبها بعينها، والثاني أيضاً محال لأن

(1) (القوة المفكرة) في الأصل (قوة المفكرة).

المطلوب إذا كان صورة ما لا هذه الصورة، فلم حصلت هذه الصورة بعينها دون سائر الصور؟ وإذا حصلت هذه الصورة بعينها حكم العقل بأن مطلوبي كان هو هذه الصورة فهذا إشكال عظيم وبالجمله فكل أحد يجد من نفسه بالضرورة أنه يحفظ الأشياء ويتفكر فيها ويستعيدها بعد غيبتها. ثم إن العقول متحيرة في معرفة حقيقة هذا الحفظ والفكر والذكر، فسبحانه ما أعظم شأنه وأبهر برهانه في أصناف ملكه وملكوته فهذا هو الإشارة المختصرة إلى خلقة الدماغ. ثم تأمل أحوال العين فإنها مركبة من سبع طبقات وثلاث رطوبات، وبالحقيقة فهي مركبة من عشر طبقات وثلاث رطوبات فالطبقة السفلى هي الطبقة الصلبة وفوقها المشيمة وفوقها الشبكة وفي الطبقة (الشبكية)⁽¹⁾ الرطوبة الزجاجية وفوقها الرطوبة البيضية وفوقها الطبقة العينية والطبقة القرنية بعدها الظاهر طبقة واحدة لكنها في الحقيقة أربع طبقات، ثم يحيط بهذا المجموع الطبقة الملتحمة فإذا عرفت هذا علمت أن طبقات العين ثلاث عشرة طبقة على عدد طبقات العالم الأكبر، فإن أعلى الطبقات للعالم الأكبر العرش وتحت الكرسى وتحت السموات السبع وتحت الطبقات الأربعة للعناصر فمجموع طبقات العالم الأكبر ثلاث عشرة ومجموع طبقات العين ثلاث عشرة⁽²⁾، ثم إنه تعالى خص كل واحدة من هذه الطبقات والرطوبات بشكل مخصوص ومقدار مخصوص وترتيب مخصوص. لو لم يوجد على ذلك الوجه بل على وجه آخر لاختلت المصالح، ثم تأمل في أحوال العين من وجوه:

الأول: أنه ﷺ جعل في موضع الإبصار مقدار عدسة واحدة ثم أظهر في تلك العدسة صورة السماء والعالم مع اتساع أطرافها وتباعد أكنافها.

الثاني: أن البياض مناسب للنور والسواد مناسب للظلمة فجعل البياض سبباً للعمى والسواد معدناً للقوة الباصرة ليعلم أن سبب حصول هذه النعمة فضل الله وكرمه لا الطبع والخاصية.

الثالث: أنه ﷺ جعل الحدقة مصونة بالأجفان لتسترها وتحفظها وتصلقها وتدفع الأقدار عنها.

(1) (الشبكية) في الأصل (الشبكة).

(2) (ثلاث عشرة) في الأصل في الموضعين (ثلاثة عشر).

الرابع: أنه ﷺ جعل الأجفان سوداً ليكون سوادها سبباً لاجتماع النور الذي يعين على الإبصار ويكون مانعاً عن تفرق ذلك النور.

الخامس: أنه خلق لتحريك الحدقة أربعاً وعشرين⁽¹⁾ عضلة لو نقصت واحدة من جملتها اختل أمر العين.

السادس: أن العين تشبه المرأة ومعلوم أن المرأة إنما يُنتفع بها إذا كانت في غاية الصقالة والصفاء، فلما كانت العين لا يُنتفع بها إلا حال كونها في غاية الصقالة والصفاء لا جرم أن الحق ﷺ خلق هذه الأجفان متحركة إلى الانطباق أبداً من غير اختيار لإنسان حتى تبقى الحدقة نقية صافية عن جميع الكدورات.

وأما الذبابة فلمَ لم يخلق لعينها الأجفان لا جرم ألهمها حتى أنها [بيدنها تقي]⁽²⁾ عينها عن الغبار والكدورات.

السابع: أنه تعالى جعل العين هادياً لصاحبها إلى إدراك الأشياء وسبباً لاطلاع غيره بواسطته على ما في قلب صاحبه، وذلك لأن القلب في داخل البدن والعينان كالزجاجتين الموضوعتين على جدار البيت فكيف ما كان الشمع في داخل البيت وقع ضوؤه على الزجاجتين فكذلك يستدل بأحوال العين على أحوال القلب في الرضى والغضب والرغبة والنفرة، فسبحانه من جعل العين هادياً لصاحب العين إلى معرفة العين والعين على معرفة أحوال قلب صاحب العين.

الثامن: هو أن ألطف أعضاء البدن هو العين ثم إن جميع الأعضاء تتأثر من الحر والبرد فوق ما تتأثر منهما العين، وكان ينبغي أن يكون الأمر بخلاف ذلك لأن الألفظ أسرع تأثراً، لكننا نرى أن الرجل على صلابة جلدها تتأثر من الحر والبرد فوق ما تتأثر العين منهما وكان ينبغي أن يكون الأمر بخلاف ذلك لأن الألفظ أسرع تأثراً وما ذاك إلا ليعلم أن حصول هذه المصالح ليس بالطبع والخاصية بل بحفظ العليم الرحيم.

وأما أحوال الأذن: فاعلم أنه تعالى شق الأذنين وأودعهما ماء مرّاً ليكون ذلك

(1) أربعاً في الأصل (أربعة).

(2) (بيدنها تقي) في الأصل (بيدنها).

معيناً على إدراك السمع وليمنع الهوام عن الدخول في الأذن ثم راعى فيه أنواعاً من المصالح.

الأول: أنه تعالى حوطها بصدفة الأذن لتجمع الصوت فيردها إلى الصماخ.

الثاني: أنه تعالى جعل في ثقبه الأذن انحرافات وانعراجات حتى تصير المسافة لهذا السبب طويلة، فلو دخل الثقبه شيء من الهوام والحشرات فحينئذٍ تكثر حركاتها بسبب طول المسافة فينتبه الإنسان ويسعى في إخراجه عن الأذن.

الثالث: أنه تعالى جعل العينين مقدمتين والأذنين مؤخرتين لأن العينين تدركان الأجسام والأعراض وهي أدلة وجود الصانع والأذنان يسمعان الكلام. والدلائل العقلية مقدمة على الدلائل السمعية فلا جرم قدم البصر على السمع.

الرابع: خلق العينين مع الغطاء والأذنين بلا غطاء لأن متعلق العينين أجسام وأعراض باقية فلولا الغطاء فيهما فكانا على خطر، ومتعلق الأذنين الصوت فلو كان لهما الغطاء لزال الصوت قبل ارتفاع الغطاء فلا يحصل الانتفاع بالسمع.

الخامس: روى كعب الأحبار قال: دخلت عليّ عائشة فقلت: «الإنسان عيناه (هاديتان)⁽¹⁾ وأذناه قمع ولسانه ترجمان ويده جناحان ورجلاه بريد والقلب ملك وإذا طاب الملك طاب جنوده»، فقالت: هكذا سمعت رسول الله ﷺ⁽²⁾.

وأما الأنف: فإنه سبحانه رفعه من وسط الوجه وأحسن شكله وفتح منخريه وأودع فيهما حاسة الشم وفيه منافع.

الأول: أنه يستدل باستنشاق الروائح على الأغذية والمطاعم المستورة.

الثاني: لنستنشق بمنفذ المنخرين الهواء البارد والطيب فنستغني بالمنخرين عن فتح الفم أبداً.

الثالث: أنه جعل تجويفه واسعاً حتى ينحصر فيه هواء كثير فينكسر برده قبل النفوذ إلى الدماغ فإن الهواء المستنشق وإن كان ينفذ إلى الرئة أكثر فإن شطراً صالحاً

(1) (هاديتان) في الأصل «هادياً».

(2) لم نره في المراجع الموجودة لدينا.

لمقدار ينفذ أيضاً إلى الدماغ فلذلك فإن المزكوم يضره استنشاق الهواء البارد.

الرابع: أن تجويفه الواسع يجذب إلى نفسه هواءً كثيراً حتى يحصل أمام آلة الشم فيكون إدراك الشم أسهل ولذلك فإن من بالغ في التشمم جذب الهواء بخيشومه أكثر.

الخامس: أنه يعينه على تقطيع الحروف وتسهيل إخراجها فلذلك إن من قبض على أنفه عسر عليه التكلم بأكثر الحروف.

السادس: أن يكون للفضول المندفعة من الرأس ستر ووقاية عن الإبصار. واعلم أن النَّفْسَ عظيمة فلو انقطع عن الإنسان لحظة واحدة لمات. ثم تأمل أن الهواء المستنشق يدخل أولاً من المنخرين فينكسر برده هناك ثم يصل إلى الحلقوم فيعتدل مزاجه هناك ثم يصل إلى الرئة ويتصفى فيها ثم يصل إلى القلب فيروح عن الحرارة الغريزية وينفذ من القلب إلى العروق المتحركة ويبلغ إلى أقصى أطراف البدن، ثم إذا تسخن جداً وخرج عن حد الانتفاع عاد من تلك الأقصي إلى القلب ثم إلى الرئة ثم إلى الحلقوم ثم إلى المنخرين ثم يخرج ويعود مثله فمجموع هذه الأفعال وهو المسمى بالنفس الواحد، ويقال أن الإنسان يتنفس في كل يوم أربعة وعشرين ألف نفس فاعرف مقدار النَّفْسِ الواحد في المنفعة فإنه لو انقطع لحصل الموت. ثم انظر إلى كثرة الأنفاس لتعرف عظيم نعمة الله عليك كما قال تعالى: ﴿وَإِنْ نَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصَوها﴾ [النحل: 18].

وأما الفم: فإنه ﷺ جعله آلة لتحصيل مصالح الروح ولتحصيل مصالح البدن أما مصالح الروح فلأنه أودع فيه اللسان الناطق المعرب لما في القلب.

واعلم أنه ﷺ خلق القلب أميراً للبدن ومعدناً للحرارة الغريزية فاحتاج القلب إلى تعديل تلك الحرارة القوية بالنسيم البارد المعتدل، فإذا استدخل الهواء البارد ووصل إلى القلب واعتدلت حرارة القلب به وبقي ذاك هناك ساعة تسخن واحترق فاحتاج القلب إلى إخراج تلك النفس فجعل المدبر الحكيم الفاطر العليم إخراج ذلك النفس سبباً لحدوث الصوت، ثم جعل في الحنجرة وفي اللسان وفي الحنك وفي الشفتين مقاطع ومخارج لحروف مختلفة فحصلت الحروف بهذا الطريق، ثم جعل تلك الحروف عند تأليفها وتركيبها مؤدية للمعاني فانظر إلى كمال الحكمة فإن المقصود

الأصلي من النفس هو إيصال النسيم البارد إلى القلب فأما إخراج النفس فهو جار مجرى دفع الفضلة الفاسدة. ثم إنه ﷺ صرف هذا المعنى إلى رعاية مصلحة أخرى وهو أنه جعلها مادة الحروف والأصوات والكلام ثم إنه ﷺ خلق الحناجر مختلفة الأشكال في الضيق والخشونة والملاسة حتى اختلفت الأصوات لأجل اختلاف هذه الأحوال فكما لا تتشابه صورتان ألبتة فكذلك لا يتشابه صوتان ألبتة، وكما يحصل الامتياز بين الأشخاص بالقوة الباصرة فكذلك يحصل الامتياز بينهم بسبب القوة السامعة فيحصل في الظلمة هذا التمييز ويحصل للأعمى هذا التمييز. وأما ما يتعلق بتحصيل مصالح البدن فهو أن أعظم الأشياء المحتاج إليها في مصلحة البدن هو الأكل وهو ﷺ أعد في الفم أسباب الأكل وهو من وجوه:

النوع⁽¹⁾ الأول: أنه تعالى خلق في الفم الأسنان ولها منافع:

الأول: منها ما ذكرنا من أنه مقاطع الأصوات فتحدث الحروف المختلفة بسببها.

والثاني: أنها تكون آلة القطع والكسر والطحن، ثم انظر إلى الحكمة وذلك أن الإنسان في أول ما يتناول الغذاء يحتاج إلى القطع فجعل الأسنان المقدمة حادة عريضة الرؤوس جارية مجرى السكين وجعل الأنياب مستديرة حادة الرؤوس للكسر وجعل الأضراس مسطحة الرؤوس خشنة كالرحى لأجل الطحن، ولو قدرنا كون الأضراس مقدمة وكون الرباعيات مؤخرة لبطلت المصالح والمنافع بأسرها.

والثالث: تكون زينة للوجه وذلك أنه ﷺ زين الفم بالأسنان فبيّض ألوانها ورتب صفوفها وجعلها متناسبة متناسقة كأنها الدر المنظوم، ثم إنه خلق الشفتين وحسن لونهما وشكلهما [لينطبقا ويسدا منفذه]⁽²⁾ ولتتمّ بهما مخارج الحروف. ومن لطيف الحكمة أنه تعالى جعل الأذن بلا حجاب ولا باب وخلق وراء اللسان بابين أحدهما الأسنان والثاني الشفتان وفيه تنبيه على أنه يجب أن يكون استماع الكلام أكثر من الاشتغال بالكلام، فإن استماع الكلام يجري مجرى الدواء والاشتغال بالكلام كالداء.

(1) النوع زيادة يقتضيها السياق.

(2) [لينطبقا ويسدا منفذه] في الأصل [لينطبقها ويبدأ منفذهما].

والنوع الثاني: مما حصل في الفم من أسباب الأكل وذلك أنه تعالى جعل معدناً للرطوبة الغدية اللعابية فالإنسان إذا وضع الطعام في الفم وطحنه بأسنانه امتزج ذلك المطحون باللعاب الذي في الفم فوصلت آثار تلك الطعوم اللذيذة في الحال كما أنه يصير سبباً لقوة البدن في الاستقبال، ثم هاهنا أنواع من العجائب:

الأول: أن كل من أراد إدارة الرحى بسبب انصباب الماء إليه وضع الرحى في موضع يكون أسفل من مجرى الماء حتى إذا انصب الماء من الأعلى إلى الأسفل حينئذ يقوى على إدارة الرحى، والله ﷻ أدار رحى الفم الذي يصعد الماء من أسفل المعدة ليعلم الخلق أن ذلك بسبب الحكمة والقدرة لا بسبب الطبع والخاصية.

والثاني: أن الإنسان قبل أن يضع الطعام في الفم اجتمعت [لديه]⁽¹⁾ من تلك الرطوبات بقدر ما يتبل به ذلك الطعام ولو لم تجتمع تلك الرطوبات في هذا الوقت لتعذر على الإنسان مضغ ذلك الطعام وتعسر عليه ابتلاعه، فانظر إلى كمال الحكمة الإلهية في الوقتين.

والثالث: أن الإنسان لما احتاج إلى طحن الطعام بالأضراس ومضغه فقد يتقلب أجزاء الطعام مما بين تلك الأضراس فجعل اللسان متحركاً في ذلك الوقت، حتى إن اللسان بحركاته المختلفة يجمع الطعام إلى ما بين الأضراس حتى يتطحن على سبيل الكمال والتمام فسبحان من له الحكمة القاهرة والدلائل الباهرة فهذه إشارة مختصرة إلى أحوال الناس وشرح أحوال هذه الحواس.

ثم هاهنا أنواع آخر من الحكمة والفوائد في الرأس:

الأول: تأمل في وضع الحواس وقوة الحفظ والفكر والذكر في الرأس وذلك لأنها جعلت في الرأس كالمصاييح فوق المنارة ليتمكن الإنسان بسبب ارتفاع هذه الحواس من إدراك الأشياء البعيدة: فما أحسن قول الحكماء: الرأس صومعة الحواس.

الثاني: كان بعضهم يقول عند أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ؓ: ما أعجب أمر الشطرنج فإن تلك الرقعة على غاية صغرها تشتمل على أنواع لا نهاية لها من

(1) زيادة يقتضيها السياق.

اللعب، فقال عمر^(١): بل ها هنا ما هو أعجب منه وأغرب وذلك لأن رقعة الوجه أصغر بكثير من رقعة الشطرنج ثم إن كل عضو من أعضاء الوجه لا يتغير عن مكانه، فالعينان أبدأً يكونان في ذلك الموضع المعين وكذلك الأنف والأذن والفم. ثم مع ذلك فإنه يحصل فيه التفاوت فإنك لا ترى شخصين في الشرق والغرب يتشابهان من كل الوجوه، فسبحانه ما أعظم شأنه.

واعلم أن التفاوت في الصورة ظاهر قوي فيما بين آدميين بعدة. فالتفاوت حاصل بين صور الحيوانات الأهلية، إلا أن التفاوت في ما بين آدميين أكثر.

وأما الحيوانات البرية فالتفاوت فيما بين صورها قليل جداً والسبب فيه أنا ذكرنا أنه لولا اختلاف صور الناس لما ميّز الزوج عن الأجنبي والسيد عن غير السيد ومالك المتاع والدار عن غيره، فكان ذلك يفضي إلى الفساد العظيم فلهذا المعنى اقتضت الحكمة الإلهية إظهار التفاوت في صور آدميين.

وأما الحيوانات الأهلية فقد يتعلق بعض الأعراض بأعيانها من بعض الوجوه إلا أن اشتداد الحاجة إلى معرفتها بأعيانها وأشخاصها ليس كالحاجة إلى معرفة الناس وأعيانها. فلا جرم أظهر الله المخالفة بينها في الصورة إلا أن تلك المخالفة أقل من المخالفة بين أشخاص الناس. وأما الحيوانات البرية فلا تتعلق مصلحة ألبتة بمعرفة أعيانها وأشخاصها فلا جرم لم تظهر المخالفة بين صورها وأشكالها إلا في القليل، فسبحان من له في كل شيء حكمة مرعية وأسرار مخفية.

الثالث: قال تعالى: ﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَمِيانَ ۚ يَلْتَمِيانَ لَا يَجْتَمِعَانِ﴾ [الرحمن: 19-20] فإن تعجبت من هذه الحالة فانظر إلى وجهك مع صغره فإنه ﷻ وضع فيه أربعة من البحار مختلفة الطبائع والصفات فجعل بحر الأذن مملوئاً من الماء المر^(١)، وبحر العينين مملوئاً من الماء المالح، وبحر الفم مملوئاً من الماء العذب، وبحر الأنف مملوئاً من الماء العفن المتغير، وجعل بين كل واحد من هذه البحار حاجزاً مانعاً وأبقى كل واحد منها على صفته وخاصيته لحكمة بالغة. أما مرارة ماء الأذن فلئلا يدخلها شيء من الحشرات، وأما ملوحة ماء العين فلئلا تتطرق العفونة إلى ذلك الشحم، وأما

(١) في المخطوط: (مرأ).

عذوبة بحر الفم فلاجل أن يجد المطعوم على غاية اللذاعة، وأما عفونة بحر الأنف فلاجل أنه جعل مصباً لفضلات الدماغ فسبحانه ما أعظم شأنه.

الرابع: قال الباقر: كل ما خلق الله في العالم الأكبر إلا وخلق نظيره في العالم الأصغر فلهذا قال: ﴿وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ يعني: إن عجزت عن مطالعة العالم الأكبر فانظر في العالم الأصغر وذلك لأنني خلقت في العالم الأكبر شمساً وقمرًا ونجومًا، وخلقت في العالم الأصغر مثلها فشمس العالم الأصغر الروح لأن الروح تضيء جسدك كما أن الشمس تضيء العالم وإذا خرجت الروح من جسدك صار جسدك مظلمًا كما أن الشمس إذا غربت صار العالم مظلمًا. والعقل كالقمر فكما أن القمر يستمد النور من الشمس فكذلك العقل يستمد النور من الروح، وكما أن القمر يزيد ضوءه تارة وينتقص أخرى فكذلك العقل يزداد قوته تارة وينتقص أخرى، وأما النجوم الخمسة السيارة الباقية فنظيرها في البدن الحواس الخمس ونظير الجبال عظامك، ونظير البحار العروق الكبار في البدن ونظير الأودية والأنهار العروق الصغار المتشعبة من تلك العروق الكبار، وكما أنه يحصل في البحار حيتان مضرية فكذلك ترى في بحر فمك لسانك مضطرباً بذكر الحكمة وفي بحر مقلتك ترى حذقتك مضطربة مطالعة العزة، وكما أنك ترى في بعض أجزاء الأرض فيه نباتاً وفي بعضها ليس كذلك فكذلك ترى في بعض أجزاء بدنك شعوراً وفي بعضها ليس كذلك وبالجمللة فاختصاص كل عضو بصفة خاصة وخلقة خاصة لا بد وأن يكون بقدرة العزيز العليم.

الخامس: أنه تعالى جمع أكثر المحاسن في الوجه: فجعل أربعة أشياء من أعضاء الوجه ملوناً بلون السواد، جعل موضع النور من الحدقة ملوناً بلون السواد وجعل الأهذاب سوداً والحاجبين والشعور سوداً، وجعل أربعة منه أبيض جعل الملتحمة من الحدقة ملوناً بلون البياض وجعل الأسنان بيضاً وجعل الجبهة كالسطح المتخذ من الفضة النقية، وجعل الذقن كالكرة المتخذة من الفضة ثم جعل الخدين على لون حمرة الورد والشفيتين على لون حمرة الياقوت، ثم جعل الوجه دائرة تامة على شكل القمر والجبهة نصف دائرة والحاجبين خطين مقوسين وامتداد الأنف كالخط المستقيم، فتأمل في رقعة الوجه وانظر إلى هذه الأنصاف المختلفة وتركيب الحدقة من السواد والبياض فهما لونان في غاية المضاادة والمنافرة فجعل النور في وسط الحدقة ثم جعل السواد محيطاً بالنور ثم جعل بياض الأجفان مرة أخرى محيطة بتلك السواد ثم

جعل سواد الحاجبين مرة أخرى محيطاً بذلك البياض ثم جعل بياض الجبهة محيطاً بسواد الحاجبين ثم جعل سواد الشعر مرة أخرى محيطاً بذلك البياض، فتأمل في هذه الصُّنع العجيبة والتركيبات البديعة ليشهد عقلك وحسك وروحك وفكرك وذكرك وجميع أجزائك وأعضائك على جلال قدرة الخالق وكمال حكمته سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون علواً كبيراً.

السادس: قال صلوات الله وسلامه عليه: «اطلبوا الحوائج عند حسان الوجوه»⁽¹⁾ فجعل حسن الصورة الظاهرة دليلاً على حسن السريرة في الأعم الأكثر، منهم من ذكر فيه وجوهاً أخرى:

الأول: كأنه قال ﷺ: «من حسن الله خلقه وجب عليه أن يجعل شكر هذه النعمة حسن الفعل».

الثاني: أنه أراد بحسن الوجه الدين وذلك لأن العبد إنما يتوجه إلى ربه بدينه والدين عند الله الإسلام، فإذا رفع المحتاج حاجته إلى من حسن دينه لم يرض من دينه أن يرده غير مقضي الحاجة إلا إذا كان عاجزاً عن قضائها.

والثالث: أنه أراد بحسن الوجه المتهجّد بالليل بدليل قوله ﷺ: «من كثرت صلاته بالليل حسن وجهه بالنهار»⁽²⁾.

السابع: روي أنه صلوات الله عليه كان يقول في سجده: «سجدت وجهي للذي خلقه وشق سمعه وبصره»⁽³⁾ وأيضاً قد يعبر بالوجه عن الذات قال تعالى: ﴿وَبَقِيَ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ وقال: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ وقال ﷺ: «وجه دينكم الصلاة» ويقال للعربي: يا وجه العرب، ويقال للطريق المفضي إلى حصول المطلوب: هذا وجه هذا الأمر. وقال الخليل ﷺ: وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض. وكل هذه الاستعلامات يدل على أنهم يجعلون الوجه اسماً لكل ذلك الشيء وتارة

(1) هو حديث باطل أورده ابن الجوزي في الموضوعات (2/ 109 - 111) وانظر التعليق على مسند الشهاب (1/ 252 - 258).

(2) هو حديث باطل أورده ابن الجوزي في الموضوعات (2/ 109 - 111).

(3) في (أ) خلقني وشق سمعي وبصري والحديث رواه مسلم (771) من حديث علي والنسائي (2/ 226) من حديث جابر.

لأشرف أجزائه وهذا يدل على أن أشرف أجزاء بدن الإنسان إنما هو الوجه، والأمر في الحقيقة كذلك وذلك لأن العين المبصرة للاعتبار فيه والأذن السامعة للأسرار فيه واللسان الناطقة بذكر الملك الجبار (فيه)⁽¹⁾ فلهذا قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام: سبحانه من بصر بشحم وأسمع بعظم وأنطق بلحم، ولا شك أن مصالح هذا العالم لا تتم إلا بهذه الحواس أما مصالح العالم الروحاني والعتبات القدسية لا تتم إلا بالفكر والذكر وهما لا تتمان إلا بالدماع، واللوح والقلم هناك والأنوار والظلمة هناك فلهذا السبب كان رسول الله ﷺ لا يأكل الثوم لأنه كان مضرراً بالدماع وكان يحب الطيب لأنه يقوي الدماغ، وكل المناصب العالية والدرجات الشريفة كان مبيناً على مصالح الدماغ. ولتكتف بهذا القدر من آثار حكمة الله تعالى في خلق الدماغ والرأس والحواس، وأما ما يتعلق بالقلب فإننا نُفرد له فصلاً.

النوع الثاني: في شرح آثار حكمة الله في خلق الإنسان وفيه وجوه:

[الوجه]⁽²⁾ الأول: أن تقول تفكر في خلق الجنين في الرحم فإنه لا حيلة له في طلب الغذاء فصرف الله تعالى إليه من دم أمه ما يكفيه ثم لا يزال ذلك غذاء له إلى أن يستحكم بدنه ويقوى جلده على مباشرة الهواء وحينئذ يهيج الطلق بالأم وينفصل الولد عن الأم، فبعد ذلك يصرف الله ذلك الدم إلى ثدي الأم ويحصل ضرب⁽³⁾ آخر من الغذاء أوفق له مما كان وهو اللبن الخالص، ثم هاهنا لطيفتان:

اللطيفة الأولى: أنه ﷺ لما غذاك حين كنت في بطن أمك بالدم فلا جرم ما أوصل إليك هذا الغذاء من طريق الفم بل من طريق السرة، والحكمة فيه أن الفم موضع الذكر والتسبيح والتهليل والدم نجس ولا يليق بالحكمة تلطيخ الفم الذي هو موضع الذكر والتسبيح والتهليل بالدم النجس، والإشارة فيه أن الذي لم يصر بعد محل الذكر بل ليس إلا مجرد صلاحيته أن يصير محل الذكر فالله تعالى نزهه عن التلطيخ بالدم، فأن نزهه وقد صار هذا الفم محل التسبيح والتهليل منذ خمسين سنة كان أولى فلا يجوز أن يلطخه بأكل الميتة وهي الغيبة والنميمة وأكل الحرام.

(1) فيه زيادة من (ب).

(2) زيادة يقتضيها السياق.

(3) (ضرب) في الأصل (حزب).

اللطيفة الثانية: قالوا فترغ خاطرك عن طلب الرزق وتيقن أنه تعالى إذا سدّ عليك طريقاً فتح لك طريقاً آخر أجود من الأول، انظر إلى الجنين أنه كان يأتيه غذاؤه وهو الدم من طريق واحد وهو السرة فلما خرج من بطن الأم وانقطع ذلك الطريق انفتح له طريقان آخران وهما الثديان فخرج منهما غذاء طاهر نظيف لطيف يخرج من بين فرث ودم ليتعلم أنه مهما انسد طريق واحد فتح الله تعالى له طريقين أحسن وأنفع من الأول، ثم إذا تم الحولان وتمت مدة الرضاع انقطع هذان الطريقان ولكن تنفتح طرق أربع طعامان وشرابان: أما الطعامان فالنبات والحيوان وأما الشرابان فالمياه والألبان، ثم إذا مات الإنسان انقطعت هذه الطرق الأربعة ولكنه تعالى بفضلته ورحمته يفتح عليك الأبواب الثمانية من الجنة لتدخل الجنة من أيها شئت بفضلته ورحمته.

الوجه الثاني: في بيان الحكمة أنه ﷻ خلقك في أحسن تقويم وذلك أنه سبحانه خلق المخلوقات في عالم الأجسام على أربعة أصناف: قوائم كالأشجار وراكم كالبهائم وساجد كالحيات والحيتان وجالس كالجبال، ثم إنه تعالى خلق الآدمي بحيث يكون تارة قائماً وتارة راکعاً وتارة ساجداً وتارة قاعداً ثم إنه يذكر الله تعالى على جميع هذه الأحوال كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾ ثم إنه انضم إلى هذا الذكر [التفكير]⁽¹⁾ فقال: ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ فما أعظم هذه الحالة وأجل هذه الدرجة، وقد تذكر الحكمة على وجه آخر فيقال: النبات رؤوسها في عمق الأرض وأرجلها صاعدة في السماء منكبشة كأنها وضعت قمة رأسها على الأرض، وأما الإنسان فإنه على العكس من ذلك فإن رجلاه على الأرض ورأسه في السماء، والحيوانات متوسطة في هاتين الحالتين لا منكوسة كالنبات ولا منتصبه كالإنسان والسبب فيه عند أهل الطبائع أن النبات جسماني محض فلا جرم كانت رؤوسها نحو الأرض والإنسان روحاني محض بالنسبة إلى سكان الأرض فلا جرم كانت رؤوسها تلي: عالم الروحانيات وهو عالم السموات ومساكن الملائكة، وأما الحيوانات فهي متوسطة في هاتين الحالتين في الجسمانية والروحانية فلا جرم كانت متوسطة بين الانتصاب والنكس.

واعلم أن هذا الكلام يوهم أن السبب لهذه الأحوال إنما هو الطبع والخاصية

(1) (التفكير) زيادة يقتضيها السياق.

إلا أنه سبحانه وتعالى أبطل هذا الوهم وأزال هذا الخيال فيقال: أيها الإنسان ما دام رأسك منتصباً كنت في مقام التكبر وفي متابعة إبليس حيث قال تعالى: ﴿أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ فإذا وضعت رأسك على الأرض فهناك تقرب من الحضرة الصمدية كما قال تعالى: ﴿وَأَسْجُدْ وَاقْتَرِبْ﴾ لتعرف أن هذا ليس بالطبع بل بفضل الله وبرحمته.

الوجه الثالث: أن بدنك يشبه الدار الكاملة التي بنيت وأكملت بيوتها وخزانتها وفتحت أبوابها وأعد فيها كل ما يحتاج إليه صاحب المنزل، فالرأس كالغرفة في أعلى الدار والثقب التي في الرأس كالروزن في كل غرفة الدار، ووسط دماغه كالأبواب في الدار والفم كباب الدار والأنف كالطاق التي فوق باب الدار والشفتان كمصراعي الباب والأسنان كالبوابين واللسان كالحاجب والظهر كالجدار القوي الذي هو حصن الدار والوجه كصدر الدار والرئة التي هي الحاوية للنفس البارد كالنبت الصيفي، وجريان النفس فيها كالهواء الذي يجري في البيت الصيفي، والقلب مع حرارته الغريزية كالبيت الشتوي والكبد كالبيت للشراب، والعروق التي يجري فيها الدم كمسالك الدار والطحال بما فيه من السواد كالحواني التي بقي فيها الدرديات والمثانة بما فيها من البول كبيت الستر والسيلان في أسفل البدن كالمواضع التي يخرج منها القاذورات من الدار والرجلان كالمركوب المطيع والعظام التي بناء الجسد عليها كالخشب التي عليها بناء الدار، واللحم في خلال العظم كالطين والعصب الذي يربط بعض العظام ببعض كالرسن الذي يربط بعض الأشياء ببعض، والتجويفات في جوف العظام كالصناديق في الدار والمخ فيها كالجواهر والأمتعة المخزونة في الصناديق، فسبحان من هيا في بيوت هذه الدار، ثم إن الروح في هذه الدار كالملك المتصرف فيبصر بالعينين ويسمع بالأذنين ويشم بالمنخرين ويذوق باللسان وينطق باللسان، ويمس باليدين ويعمل الصنائع بالأصابع ويمشي بالرجلين ويبرك على الركبتين ويقعد على الإليتين وينام على الجنين ويستند بالظهر ويحمل الأثقال على الكتفين ويتخيل بمقدم الدماغ ويتفكر بوسط الدماغ ويتذكر بمؤخر الدماغ ويصوت بالحنجرة ويستنشق الهواء بالخيشوم ويمضغ بالأسنان ويبتلع بالمري، والمقصود من جميع هذه الأحوال أن يكون في حضرة الربوبية مشغلاً بالعبودية كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْإِنْسَ إِلَّا لِعِبَادُونِ﴾ [الذاريات: 56] ثم إنه تعالى فوض تدبير هذه المملكة إلى ثلاثة من الرؤساء:

أولها: الشهوة ومسكنها في الكبد وجريانها مع الدم في العروق الساكنة ولهذا المعنى قال: «إن الشيطان ليجري من ابن آدم مجرى الدم» وذلك لأن القوة الشهوانية

لا تسري إلا من الكبد مع الدم في العروق.

وثانيها: القوة العصبية ومسكنها القلب وهي تجري في العروق المتحركة إلى جميع أطراف البدن.

وثالثها: القوة النفسانية المدبرة ومسكنها الدماغ، وهي تجري في الأعصاب إلى جميع أطراف البدن. وهؤلاء الرؤساء الثلاثة ليسوا أشياء متباينة مستقلة بأنفسها بل هي الفروع المتفرعة من أصل واحد وكالأغصان النابتة من شجرة واحدة وكالمنبع الذي تنشق منه ثلاثة أنهار وكالأب الذي يتولد منه أولاد ثلاثة وكرجل يعمل أعمالاً ثلاثة فتسمى بثلاثة أسماء الحداد والصانع والبناء مثلاً، فهؤلاء الثلاثة كملوك الأصراف الذين ولأهم الملك الأعظم فالشهوة تشبه أفعالها أفعال النساء والصبيان والحمقى من الناس إذا لم يؤدبهم آباؤهم وأزواجهم، والغضب تشبه أفعاله أفعال العيارين والقتالين إذا لم يؤدبهم الملوك، والقوة المدبرة تشبه أفعالها أفعال الحكماء والفقهاء وأهل الخير والصلاح.

الوجه الرابع: كأنه ﷺ يقول: عبدي أردت أن أخرجك إلى الدنيا وأعرضك على والديك وعلى أهل الدنيا فلما أردت ذلك زينتك كما تزين الأم المشفقة ولدها حين تريد عرضه على الناس، فجعلت جبهتك كالسطح المتخذ من الفضة النقية لتكون محل السجود وأظهرت في رقعة وجهك أنواع النقوش العجيبة وأعطيتك الحاجب المقوس والعين الملوزة والخذ المورد وجعلت وجهك كالقمر ثم جعلت العينين للاهتداء والأذنين للإصغاء والفم للاغتذاء والمعدة للهضم والكبد للإتمام والعروق لتكون كالأنهار والمنافذ لدفع الفضول واليدين للأعمال والرجلين للمشي، وإنما فعلت بك كل هذه الأعمال لتكون عند خروجك إلى الدنيا مبرءاً من النقصان فإذا برأتك عن النقصان عندما أخرجتك إلى الدنيا مع أنها سجن ودار محنة وموضع ممر لا مسكن مفر فاعرف كيف تكون عنايتي بك وبتحسين أحوالك إذا أخرجتك من القبر إلى محفل القيامة.

الوجه الخامس: أنه ﷺ خلق اليدين آلة للطلب والرجلين آلة للهرب، ثم إنه تعالى خلق اليد مركبة من أربع مفاصل محسوسة العضد والساعد والكف والأصابع فإن أراد الإنسان جعل هذه العظام الأربعة بمنزلة العظم الواحد قدر عليه فيمد اليد ويجعلها كالرمح وإن أراد أن يأخذ جسماً مستديراً تحت إبطه جعل اليد كالدائرة المحيطة لذلك

الشيء لأجل أنه حصل في اليد هذه المفاصل، ثم إنه ﷺ جعل الأصابع خمساً وقسم كل أصبع بثلاث أنامل ووضع الأربع في جانب والإبهام في جانب آخر وبهذا الترتيب صلحت اليد للأعمال الكثيرة فإن بسطها كان كالطبق يضع عليها ما يريد، وإن جمعها كانت آلة للضرب وإن ضمّتها ضمّاً غير تام كانت مقرفة له، وإن ضمّ أحدهما إلى الآخر صار المجموع كالقدح الكبير، ثم خلق الأظفار على رؤوسها زينة للأنامل وعماداً لها من ورائها حتى تمكنه أن يلتقط بالأصابع الأشياء الدقيقة ولتتمكنه أيضاً أن يحك بدنه عند الحاجة. ثم تأمل في هذا المقام فإن الظفر الذي هو أخس الأعضاء لو لم يحصل للإنسان لصار أعجز الخلق عند الحاجة إلى الحك فإن أحداً لا يقوم مقامه في حك كل بدنه، ثم من عجائب هذا الباب أنه إذا احتاج موضع معين من بدنه فإنه لا يخطيء فيه ألبته ولو في وقت النوم والغفلة ولو استعان بغيره لم يعثر على موضع الحك إلا بعد نعت طويل.

ولنذكر منافع اليدين من وجه آخر فنقول: من المعلوم أن مصالح الإنسان تنقسم إلى قسمين: إلى روحانية وإلى جسمانية، أما المصالح الروحانية فلليد فيها أعظم أنواع المعونة وذلك لأن عقل الإنسان الواحد لا يستقل باستنباط جميع العلوم المحتاج إليها إذ لا بد من استعانة بعض العقول ببعض وذلك لا يتم إلا بأن يكتب المتقدم ما حصله من العلوم، والكتابة لا تحصل إلا باليد وأما [المصالح]⁽¹⁾ الجسمانية فهي جلب المنافع ودفع المضار، أما جلب النفع فلليد فيه أعظم أنواع المعونة وذلك لأن الإنسان يتخذ بيديه آلات يعيد بها ما في البر والبحر والهواء من الحيوان ويعمل السفن فيقطع بها البحار والمسافة البعيدة ويتخذ آلات يخرج منها أصوات لذيدة نافعة للبدن وللروح، ويبني بيديه المساكن الحسنة وتنسج الثياب الحسنة ويتخذ الأطعمة الطيبة اللذيذة. ومعلوم أن كل هذه الأعمال لا تنهياً إلا باليدين وتارة تنسج الثياب المنقوشة بعجائب النفوس وفنون الألوان والأصباغ فيصير لونه أحسن من لون الطاووس وتارة يجعل لنفسه من الذوئب ما يشبه بذوات الأعراف، وتارة يتخذ لنفسه من أصناف الحلي ما يصير أحسن من ذوات الأطواق. وأما دفع الضرر فهو على قسمين: تارة بالجهد وأخرى بالتحرز، أما الجهد فإنما يكون بالسلاح فهو يمسك بيديه ما هو أعظم وأبلغ من القرون كالرمح وما هو أقطع من الأنياب كالسيف وما هو

(1) المصالح في الأصل مصالح.

أبلغ في النجش من المخالب كالخنجر وما هو أشد رُضاً من الحافر (كالطوب)⁽¹⁾ والأحجار، فإذا تأملت علمت أن اليد مع الرمح قرن ومع السيف ناب ومع الإبرة [جمة]⁽²⁾ ومع الخنجر مخلب، وأما التحرز فإما أن يكون بالهرب أو بالتحصن، أما الهرب فإنه يذل النفس بيديه فيعلوه حتى يصير سرعة ركض الفرس له فتدرك به إذا طلب ويعجز طالبه إذا هرب وأما التحصن فإن يعمل بيده ما هو أفضل مما حصلت للحيوانات من الجلود الغليظة والأظلاف والأصداف وذلك مثل الترس والدروع وأنواع السلاح ويتخذ بيديه القلاع والحصون أحسن مما لسائر الحيوانات وكل هذه الأعمال إنما يتأتى باليدين، ثم إنهما يخدمان جميع البدن خدمة عظيمة فتبعد أنواع الآفات والقاذورات من كل البدن ويجران جميع المنافع إليها ولو خاضت العقول أدواراً وأعصاراً في معرفة آثار حكمة الله تعالى في خلق اليدين لاعترفت بعد التوغل التام بالعجز والقصور. واعلم أن الاستقصاء في بيان آثار حكمة الله في خلق الإنسان مما لا يمكن شرحه في هذا الكتاب. ونعم ما قال الشيخ أبو حامد الغزالي في كتاب الإحياء، فقال: والعجب كل العجب ممن يرى صورة إنسان على حائط فيستحسنه ويصرف جميع همته إلى النقاش [في أنه]⁽³⁾ كيف نقشه وكيف قدر عليه مع أنه يعلم أن ذلك النقش إنما تم وكمل بالصنع بالقلم والحائط واليدين والقدرة والعلم والإرادة، وشيء من ذلك ليس من فعل النقاش ولا من خلقه بل كل ذلك من خلق الله تعالى وإنما غاية فعل هذا النقاش الجمع بين الصنع بالقلم وبين الحائط على ترتيب مخصوص فإذا كان هذا القدر من العمل سبباً للاعتراف لذلك النقاش بالعلم والحكمة فبأن نستدل بظهور تركيب الإنسان وتخليقه على جلاله علم الخالق ونهاية قدرته وحكمته كان أولى.

الوجه السادس: انظر مع كمال قدرته إلى تمام حكمته وذلك لأن الجنين حينما يكون في الرحم يكون بعض أعضائه مضموماً إلى البعض ويكون مجموعته كالكرة الموضوعة في كيس الرحم، وذلك لأنه قد يكون ضمٌّ فخذه إلى صدره ووضع راحته إلى ركبتيه ووضع رأسه على ركبتيه فتكون عيناه على ظهر كفيه ويكون أنفه بين الركبتين ويكون جالساً على رجله ومعتمداً على عقيبيه كالشخص المتفكر المغموم المهموم المنتظر لورود الأمر عليه ويكون وجهه إلى ظهر أمه حماية للقلب، وهذه

(1) (كالطوب) في الأصل (كالثوب).

(2) (جمة) كذا في المخطوط.

(3) في المخطوط (فإنه).

الجلسة أيضاً أوفق للانقلاب ثم إذا صار الجنين كبيراً وضاق عليه الموضع فإنه ﷺ يلهمه إلى كيفية الخروج فينتكس ويعين على الانقلاب ثقل الأعالي في الجنين. ثم في ذلك الوقت يفتح الرحم الانفتاح الذي لا يمكن أن يتخيل في مثله مثله، ولا بد من انفصال بعض المفاصل العظيمة وذلك مدد وعناية من الله تعالى في ذلك الوقت يعجز عن معرفة كيفيتها العقول البشرية ثم ها هنا أحوال عجيبة:

الأول: أن الجنين كان في البطن أيده الحق ﷺ بالإلهام حتى عرف أن مصلحته عند الخروج في أن ينقلب وينتكس، ثم بعد الانفصال من البطن والخروج إلى الدنيا لا يهتدي ألبتة إلى شيء من مصلحته، وذلك لأن عند كونه في البطن ليس هناك من يعينه على شيء من مصلحته ولما خرج إلى الدنيا فها هنا له من يعينه على رعاية مصلحته فلا جرم انقطعت تلك الهداية وهذا يدل على أن الإنسان كلما كان أشد عجزاً وقصوراً كانت عناية الله به أتم، ولا شك أن عجز الخلق في موقف القيامة أشد وأكمل فنرجو من الله تعالى أن تكون عنايته بهم في ذلك الوقت أتم.

الثاني: البيضة إذا انفصلت عن الدجاجة خرج الفرخ عنها وغذت والتقطت من الحب ما ينفعها واحترزت عما يؤذيها وفرت بين أمها المشغفة بها وبين الهرة الطالبة لإيذائها، أما الإنسان فإنه حال انفصاله عن الأم لا يميز بين النافع والضار والصديق والعدو فكان في هذا الوقت أكثر جهالة من الفرخ عند خروجه عن قشر البيضة، ثم إن الأمر لو كان مستمراً على قانون الطبيعة والخاصية وجب أن يكون الفرخ لما كان أذكى وأكثر تمييزاً في مبدأ الأمر أن يكون الإنسان⁽¹⁾ في مبدأ الأمر أكثر تمييزاً من الفرخ أو أن يكون الفرخ أذكى وأكثر تمييزاً من الإنسان عند المنتهى والكمال، لكنه تعالى قلب هذه القضية فجعل من كان كثير التمييز في أول الأمر قليل التمييز عند الكمال والغاية، وجعل الإنسان الذي هو أقل الحيوانات تمييزاً في أول الأمر أكثر معرفة وهداية وعقلاً ليعرف أن كمال ذلك بحسب القدرة والحكمة والعناية لا بحسب الطبع والعلة والخاصية.

الثالث: أن الصبي بعد الخروج من بطن الأم لما احتاج إلى الغذاء فانظر كيف هداه الله تعالى إلى التقام الثدي، ولما كان بدنه نحيفاً لا يحتمل الأغذية الكثيفة انظر

(1) أن يكون الإنسان في الأصل: أن يكون أكثر تمييزاً من الإنسان.

كيف دبّر له في حلب اللبن اللطيف، ثم خلق الثديين وجمع فيهما اللبن اللطيف وأنبت على رأس الثديين حلمتين على قدر ما تنطبق عليه فم الصبي، ثم جعل في تلك الحلمة ثقباً ضيقاً جداً حتى لا يخرج منه اللبن إلا بعد المص، فإن الطفل لا يقدر على الابتلاع أن لو خرج من الثدي لبناً كثيراً في فمه بالمص، ثم انظر إلى عناية لطف الله تعالى كيف هداه للامتصاص حتى يستخرج من ذلك المضيق اللبن الكثير عند شدة الجوع على الرفق ثم إنه سبحانه وتعالى أخر خلق الأسنان إلى تمام الحولين لأنه في الحولين لا يغتذي إلا باللبن وهو مستغن عن السنّ وإذا صار كبيراً ولم يوافقه اللبن واحتاج إلى الطعام الغليظ فيحتاج إلى المضغ والطحن حينئذ فلا جرم ينبت له الأسنان عند حدوث الحاجة لا قبلها ولا بعدها، فتبارك الله أحسن الخالقين وأحكم الحاكمين وأرحم الراحمين ورب الخلائق أجمعين.

الفصل السادس:⁽¹⁾

في شرح أحوال الإنسان

من وقت ولادته إلى وقت موته من الحجاب

ذهب أكثر العقلاء إلى أن أشرف أعضاء البدن هو القلب وهو الرئيس المطلق لسائر الأعضاء وهو المخاطب في الحقيقة وهو موضع التمييز والاختيار، أما سائر الأعضاء فمسخرة له والدليل عليه القرآن والخبر والمعقول.

الحجة الأولى: قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ وقال في سورة الشعراء: ﴿وَأَنَّهُ لَنَزَّلُ رَبِّيَ الْعَالَمِينَ﴾ (١٩٦) نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ (١٩٧) عَلَى قَلْبِكَ ﴿فدلت هاتان الآيتان بصريهما على أن التنزيل والوحي كان على القلب، فوجب أن يكون المخاطب والمكلف هو القلب.﴾

الحجة الثانية: قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْفَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ والآية دالة بصريهما على أن الذكرى والفهم إنما يحصل بالقلب وتأويل إلقاء السمع الجذ في الاستماع حتى يصير سمعه كالنبي الذي ألقى إليه الكلام⁽²⁾ بلا إضراب فيه. ومن الناس من قال أن [أو]⁽³⁾ في الآية بمعنى الواو وذلك لأن الذكر لا بد فيه من مجموع الأمرين ولا بد فيه من حضور القلب ولا بد فيه من إلقاء السمع، لأن القلب عبارة عن محل إدراك الحقائق. وإلقاء السمع عبارة عن الجهد والاجتهاد في تحصيل تلك الإدراكات ومن المعلوم أنه لا بد من الأمرين معاً فكان أو ها هنا بمعنى الواو.

والجواب: أن ما ذكرتم محتمل ولكن يمكن أيضاً إجراء الآية على ظاهرها

(1) السادس. في الأصل الخامس وهو سهو من الناسخ.

(2) (كالنبي) في الأصل (كالشيء) (إليه الكلام) في الأصل (إلا الكلام).

(3) [أو] زيادة من (ب).

وذلك لأن القوى العقلية قسمان: منها ما يكون في غاية الكمال والصفاء ويكون مخالفاً لسائر العقول بالكمية والكيفية، أما الكمية فلأن تركب تلك المقدمات البديهية والحسية والتجريبية لها أكثر وأما بالكيفية فلأن تركب تلك المقدمات على وجه مساق إلى النتائج الخفية ومثل هذه القوة العقلية يستغنى في معرفة حقائق الأشياء عن التعلم والاستعانة بالغير إلا أن مثل هذا يكون في غاية الندرة.

وأما القسم الثاني: وهو الذي لا يكون كذلك فهو يحتاج في اكتساب العلوم النظرية إلى التعلم والاستعانة بالغير والتمسك بالقانون الصناعي الذي يعصمه عن الخلل والزلل. إذا عرفت هذا فقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرٍ لِّمَن كَانَ لَمْ قَلْبٌ﴾ إشارة إلى القسم الأول وإنما ذكر القلب بلفظ التنكير ليدل ذلك على [الكمال]⁽¹⁾ التام بدليل قوله تعالى: ﴿وَلَنَجْذِثَّهُمْ أَخْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاتِهِمْ﴾ [أي على حياة]⁽²⁾ عظيمة طويلة المدة فكذا ها هنا قوله لمن كان قلب كامل في قوة الإدراك عظيم الدرجة في الاستعداد بمعرفة الحقائق وأما قوله: ﴿أَوَ أَلْفَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ فهو إشارة إلى القسم الثاني الذي يفتقر إلى الكشف والاستعانة بالغير وهذا من الأسرار الذي عليها بناء أصل العلم المنطقي وقد لاح بتوفيق الله في هذه الآية. فلما كان القسم الأول نادراً جداً وكان الغالب هو القسم الثاني لا جرم أمر الكل في أكثر الآيات بالطلب والاكتساب فقال: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونُ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ [الحج: 46] فإن قوله: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ حث على الطلب والجهد في الكسب وقال صاحب المنطق أن القسم الأول وإن كان غنياً عن الاستعانة بالمنطق إلا أنه نادر جداً والغلبة للقسم الثاني وكلهم محتاجون إلى المنطق فانظر إلى هذه الأسرار العميقة كيف تجدها مدرجة في ألفاظ القرآن.

الحجة الثالثة: الآيات الدالة على أن استحقاق الجزاء ليس إلّا على ما في القلب من المساعي فقال تعالى: ﴿لَا يُؤْخِذُكُمُ اللَّهُ بِالْفُحْشِ إِنَّمَا يَأْخِذُكُم بِمَا كَسَبْتُمْ قُلُوبُكُمْ﴾ وقال تعالى: ﴿لَنْ يَنَالَ اللَّهُ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنْكُمْ﴾ [الحج: 37] ثم بيّن تعالى في آية أخرى أن التقوى بالقلب فقال: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ أَمْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ

(1) في المخطوط «كمال».

(2) [أي على حياة] زيادة من (ب).

لِلْقَوَىٰ ﴿١﴾ وقال تعالى: ﴿وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ﴾.

الحجة الرابعة: قوله تعالى حكاية عن أهل النار: ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ واستعرف أن العقل في القلب وأن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولاً، ومعلوم أن السمع والبصر لا فائدة فيهما إلا ما يؤديانه إلى القلب فكان السؤال عنهما في الحقيقة سؤالاً عن القلب، ونظيره قوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ ومعلوم أن خيانة الأعين لا تكون إلا بما يضمه القلب عند التحديق والنظر.

الحجة الخامسة: قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ فخص هذه الثلاثة بالزام الحجة بسببها واستدعاء الشكر عليها، وقد قلنا أنه لا طائل في السمع والإبصار إلا بما يؤديانه إلى القلب ليكون القلب هو القاضي فيه والحاكم عليه.

الحجة السادسة: قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّهُمْ فِيمَا إِن مَّكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَرَ وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَرُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ فجعل هذه الثلاثة تمام ما ألزمهم من حجتة، والمقصود من ذلك هو الفؤاد القاضي فيما يؤدي إليه السمع والبصر.

الحجة السابعة: قوله تعالى: ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰ أَبْصَرِهِمْ﴾ فجعل العذاب لازماً لهذه الثلاثة ونظيره قوله تعالى: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آفَئِدَةٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ وجه الاستدلال بهذه الآية أن المقصود من هذه الآية بيان أنه لا علم لهم أصلاً، ولو ثبت العلم في غير القلب ككلماته في القلب لم يتم الغرض.

الحجة الثامنة: أنه تعالى ذكر الإيمان في القرآن إضافة إلى القلب فقال تعالى: ﴿مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَقْوَابِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنُ قُلُوبُهُمْ﴾ وقال تعالى: ﴿إِلَّا مَن أُوْكِرَهُ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾ وقال تعالى: ﴿كُتِبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانُ﴾ وقال تعالى: ﴿وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ فثبت أن محل هذه المعارف لهم القلب فإذا كان كذلك كان محل الإرادات هو القلب لأن الإرادة مشروطة بالعلم، وإذا كان محل العلم والإرادة هو القلب كان الفاعل هو القلب.

الحجة التاسعة: إن محل العقل هو القلب وإذا كان كذلك كان المكلف هو القلب. إنما قلنا أن محل العقل هو القلب لقوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونُ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ [الحج: 46] وقوله: ﴿قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾ وقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ﴾ [ق: 37] أي عقل أطلق على العقل اسم القلب لأن القلب محل العقل. وأيضاً إنه تعالى أضاف أصداد العلم إلى القلب فقال: ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ ﴿وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ، ﴿يَحْذَرُ الْمُتَّقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾، ﴿يَقُولُونَ يَا فَوْهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾، ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾، ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ أَلَمْ يَكُنْ أَعْيُنُهُمْ أَفْقَالُهَا﴾، ﴿لَا تَعَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ فدللت هذه الآيات على أن موضع الجهل والغفل هو القلب فوجب أيضاً أن يكون موضع العقل والفهم هو القلب.

وأما الخبر: فما روى النعمان بن بشير قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ألا إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب»⁽¹⁾. وهذا تصريح بأن الفاعل هو القلب وباقي الأعضاء تبع له. وروي أن أسامة لما قتل الكافر الذي قال: لا إله إلا الله فقال ﷺ: «لم تقتله» فقال: لأنه قال هذه الكلمة عن الخوف فقال ﷺ: «هلا شققت عن قلبه»⁽²⁾. وهذا يدل على أن محل المعرفة هو القلب وكان ﷺ يقول: «يا مقلب القلوب والأبصار ثبت قلبي على دينك»⁽³⁾ وهذا يدل على المقصود.

وأما المعقول: فاعلم أن هذه المسألة مما عظم اختلاف الفلاسفة فيها فزعم أرسطوطاليس أن النفس واحدة ولها أفعال ثلاثة: الفكر والغضب والشهوة فهذه صفات ثلاثة لجوهر واحد وهو النفس، والمتعلق الأول للنفس هو القلب ومنها تتعدى القوى النفسانية إلى سائر الأعضاء، وزعم بقراط وأفلاطون وجالينوس أنها نفوس ثلاثة كل واحدة منها مستقل بنفسه وكل واحدة منها عضو على حدة فمعدن النفس المفكرة هو الدماغ ومعدن النفس الغضبية هو القلب ومعدن النفس الشهوانية هو الكبد.

(1) هو جزء من حديث النعمان بن بشير عند البخاري «52 و2051» ومسلم «1599» وغيرهما.

(2) رواه مسلم (96) وغيره من حديث أسامة بن زيد.

(3) رواه ابن ماجه «199» وابن حبان (2419 موارد) والحاكم (258) من حديث النواس بن سمعان وهو حديث صحيح.

واعلم أن القرآن والأحاديث يطابقان⁽¹⁾ لقول أرسطاطاليس ونحن نورد في هذا المقام هذه المسألة على سبيل الاستقصاء، فنقول: إثبات صحة ما ذهب إليه أرسطاطاليس يتوقف على إثبات «أمرين»⁽²⁾ أحدهما: بيان أن النفس واحدة، والثاني: بيان أن العضو الرئيس على الإطلاق واحد وهو القلب.

أما المقام الأول وهو بيان أن النفس واحدة فنحن ها هنا بين مقام إما أن ندعي البداهة وإما أن ندعي الاستدلال، أما دعوى البداهة فهو أن المراد من النفس ما إليه يشير كل أحد إلى ذاته الخاصة بقوله: أنا، وكل يعلم بالضرورة أنه إذا أشار إلى ذاته الخاصة بقوله: أنا فإن ذلك المشار أحد غير متعدد، فإن قيل لم لا يجوز أن لا يكون المشار إليه بقوله: أنا، وإن كان واحداً إلا أن ذلك الواحد يكون مركباً من ثلاثة أشياء وهي: القوة المفكرة والغضبية والشهوانية؟ والجواب هذا باطل لأن بداهة عقلي حاكمة بأني اشتهيت وتفكرت وبداهة عقلي حاكمة بأني إذا قلت أنا اشتهيت أنا أتفكر أنا أغضب، فموضوع هذه القضايا الثلاثة شيء واحد والتعدد إنما وقع في المحمول كما إني إذا قلت هذا الجسم حار أسود يابس فالموضوع واحد والتعدد في الحملات وإذا كان هذا معلوماً بالضرورة علمنا أن الجوهر واحد في الذات متعدد بالصفات، وأما طريق الاستدلال: فيدل على قولنا وجوه:

الحجة الأولى: أن الغضب حالة نفسانية يحدث عند دفع المنافي، والشهوة حالة نفسانية تتولد عند طلب الملائم، ودفع المنافي وطلب الملائم مشروط بالشعور بكون الشيء ملائماً ومنافياً، فالقوة الغضبية التي هي قوة دافعة للمنافي إن لم يكن لها شعور بكونه منافياً امتنع كونها دافعة للمنافي على سبيل الاختيار والقصد لأن القصد إلى الدفع والحدث مشروط لا محالة بالشعور بالشيء، والشيء المحكوم عليه بكونه دافعاً للمنافي على سبيل الاختيار لا بد وأن يكون له شعور بكونه منافياً، فالإدراك والغضب صفتان من صفات شيء واحد وكذلك القول في الشهوة فثبت بهذا البرهان القاطع أن التفكير والغضب والشهوة صفات ثلاثة لذات واحدة [لا أنها]⁽³⁾ صفات متباينة.

(1) يطابقان في (ب) مطابقان.

(2) «أمرين» زيادة يقتضيها السياق.

(3) [لا أنها] (في الأصل) لأنها.

الحجة الثانية: أنا [لو]⁽¹⁾ فرضنا مبدئين يكون كل واحد منهما مستقلاً بفعله الخاص امتنع أن يكون اشتغال أحدهما بفعله الخاص به مانعاً للآخر من الاشتغال من فعله الخاص بذلك الآخر وإذا ثبت هذا فلو كانت القوة المفكرة مبدءاً مستقلاً بنفسها وكذا القوة الشهوانية والغضبية، وجب أن لا يكون اشتغال القوة بفعلها مانعاً للقوة الشهوانية من الاشتغال بفعلها ولا بالعكس⁽²⁾ لكن هذا باطل فإن اشتغال الإنسان بالشهوانية والصبابة إليها يمنعه من الاشتغال من الغضب والانصباب إليه فعلمنا أن هذه الأمور الثلاثة ليس مبادئ مستقلة بأنفسها بل هي صفات لجوهر واحد فلا جرم كان اشتغال ذلك الجوهر بأحد هذه الأفعال مانعاً عن الاشتغال بالفعل الآخر.

الحجة الثالثة: أنا إذا أدركنا شيئاً فقد يكون الإدراك سبباً لحصول الشهوة وقد يكون سبباً لحصول الغضب، فلو كان الجوهر المدرك مغايراً للجوهر الذي يغضب وللجوهر الذي يشتهي فحين ما أدرك صاحب الإدراك لم يكن لهذا الإدراك أثر ولا خبر عند صاحب الشهوة والغضب فوجب أن لا يترتب على ذلك الإدراك لا حصول الغضب ولا حصول الشهوة، وحيث حصل هذا الترتيب علمنا أن صاحب الإدراك بعينه هو صاحب الشهوة وهو صاحب الغضب هذا جملة ما يحتج به، واحتج⁽³⁾ من قالوا بالنفوس الثلاثة بأن قالوا: إنا رأينا النفس الشهوانية حاصل في النبات بدون النفس الغضبية ورأينا النفس الغضبية حاصل في الحيوان بدون النفس الناطقة، ثم رأينا هذه الآثار الثلاثة حاصلة في الإنسان علمنا أن كل واحدة من هذه الثلاثة جوهر مستقل بنفسه متفرد بذاته. والجواب ثبت في أصل المعقولات أن الماهيات المختلفة يجوز اشتراكها في آثار متساوية وإذا ثبت هذا فنقول: من الجائز أن يكون النفس الإنسانية متساوية للنفس النباتية في أفعال التغذية والنمو، وإن كانتا مختلفتين في الماهية ومن الجائز أن يكون النفس الإنسانية متساوية للنفس البهيمية في فعل الغضب وإن كانتا مختلفتين في الماهية وعلى هذا يكون جوهر النفس الإنسانية واحدة بالذات إلا أنها مبدأ لأفعال ثلاثة.

أحدها: النطق ولا يشاركها فيه سائر النفوس.

-
- (1) (لو) زيادة يقتضيها السياق.
 (2) ولا بالعكس في المخطوط لا بالعكس.
 (3) (واحتج) في الأصل (واحتجوا).

وثانيها: الغضب ويشاركها فيه البهيمة فقط .

وثالثها: التغذي ويشاركها فيه النبات والبهيمة، فإن قالوا: فالنفس الواحدة كيف تكون مصدراً للأفعال المختلفة؟. قلنا: لِمَ لا يجوز ذلك لا سيما عند حصول الآلات المختلفة، فهذا هو البيان الملخص في وحدة النفس وهو أقوى (مما)⁽¹⁾ كتب جالينوس فيه المجلدات .

فأما المقام الثاني في بيان أن العضو الرئيس على الإطلاق هو القلب فنقول أنا قد بينا فيما تقدم أن المنى إذا وقع في الرحم صار كالكرة ويجمع الأجزاء النارية والهوائية ويصير مادة للأرواح، ويجمع الأجزاء المائية والأرضية ويحيط بتلك الأرواح ليكون صواناً لها ومانعاً لها من التحلل والتفني وذلك الموضع المتوسط الذي اجتمعت فيه تلك الأجزاء اللطيفة هو الموضع الذي إذا نمت خلقتة كان قلباً، فبهذا الطريق عرفنا أن أول عضو يكون هو القلب فإذا كانت النفس واحدة كان تعلقها الأول بالقلب وبواسطة القلب يسري أثره إلى سائر الأعضاء فثبت أن العضو الرئيس على الإطلاق هو القلب هذا هو الكلام المعول عليه في إثبات هذا المطلوب، وهاهنا وجوه إقناعية ونحن نذكرها:

الحجة الأولى: أن العقلاء يجدون الفهم والإدراك والعلم في ناحية القلب فعلمنا أن القلب محل العلم .

قال جالينوس: نسلم أن القلب محل الغضب فأما أنه محل العلم فممنوع وجوابه أن الغضب دفع المنافي، ودفع المنافي له شعور بكونه منافياً فوجب أن يكون القلب محل العلم والشعور .

الحجة الثانية: أن النفس هي الحساسة المتحركة بالإرادة فإذا تعلقت النفس بالقلب فلا بدّ وأن يكون تفيد الحس والحركة الإرادية فيكون القلب منبعاً للحس والحركة الإرادية .

الحجة الثالثة: أن الحس والحركة الإرادية إنما يحصلان بالحرارة، أما البرودة فعائقة عنهما والقلب منبع للحرارة والدماغ للبرودة فجعل القلب مبدءاً للحس والحركة

(1) (مما) زيادة من (ب) .

الإرادية أولى من جعل الدماغ مبدءاً لهما.

الحجة الرابعة: كل أحد إذا قال «أنا» فإنه يشير بقوله أنا إلى صدره وناحية قلبه، وأيضاً إذا قال الرجل العاقل أنا أفعل كذا، وأنا أقول كذا يضع يده على صدره، وهذا يدل على أن كل أحد يعلم بالضرورة أن المشار إليه بقوله أنا موجود في القلب لا في الدماغ.

الحجة الخامسة: أظهر آثار النفس الناطقة النطق فوجب أن يكون معدن النفس الناطقة هو الموضع الذي منه ينبعث النطق لكن النطق والكلام إنما ينبعث من القلب لا من الدماغ و[كذا] الصوت لأن الصوت إنما يتولد من إخراج النفس وإدخال النفس وإخراجه فعل القلب وذلك لأن من إدخال النفس ترويح حرارة القلب والمقصود من إخراجه دفع الفضلة المحترقة وإذا كان إدخال النفس وإخراجه مقصوداً للقلب بالذات فكان إسناد هذا الفعل إلى القلب أولى من إسناده إلى الدماغ الذي لا حاجة به ألبيته إلى النفس، فثبت أن إخراج النفس فعل القلب، والصوت إنما يحدث من إخراج النفس فثبت أن فاعل الصوت هو القلب، قال جالينوس: الصوت لا ينبعث من القلب بل من الدماغ ويدل عليه وجوه:

الأول: أن الآلة الأولى للصوت هي الحنجرة بدليل أنك إذا خرقت قصبة الرئة أسفل من الحنجرة لم تسمع لذلك الحيوان بعد هذه الحالة صوتاً فثبت أن آلة الصوت هي الحنجرة والحنجرة مؤلفة من ثلاثة غضاريف والغضاريف يتحرك بعضلات كبيرة وقيل العضلات إنما يتحرك بالأعصاب والأعصاب نابتة من الدماغ فثبت أن فاعل الصوت هو الدماغ.

الثاني: أنا نرى عضل الدماغ يتمدد عند التصويت بالصوت العنيف وأما القلب فإنه لا يناله التعب عند التصويت.

الثالث: أن القلب إذا كشف عنه ثم قبض عليه لم يبطل من الحيوان صوته وإن انكشف من الدماغ ثم ضغط بطل في الحال صوت ذلك الحيوان. فثبت أن مبدأ الصوت هو الدماغ لا القلب، الجواب أنا بينا بالحجة القوية أن مبدأ الصوت هو القلب أقصى ما في الباب إن الدماغ يعين عليه إلا أن هذا لا يقدح في قولنا.

الحجة السادسة: أن القلب موضوع في موضع يقرب أن يكون وسطاً من البدن والعضو الرئيس يليق به ذلك حتى يكون ما ينبعث من القوى يصل إلى جميع أطراف البدن على القسمة العادلة والدماغ موضوع في أعلى البدن وذلك ينافي في هذا المقصود.

الحجة السابعة: أن الناس يصفون القلب بالذكاء فيقولون قلب ذكي وقلب بليد، قال جالينوس: الناس إذا وصفوا إنساناً بأنه له قلباً قوياً فمرادهم منه الشجاعة وإذا قالوا فلان لا قلب له فالمراد منه الجبن، والجواب أن هذا يدل على أن القلب موضع الغضب وهو لا ينافي في أن يكون القلب أيضاً موضع الفهم والعلم. واحتج جالينوس على أن معدن الإدراك هو الدماغ [بوجهه]⁽¹⁾:

الحجة الأولى: هي أن الدماغ منبت العصب والعصب آلة الإدراك وما كان منبتاً لآلة الإدراك فوجب أن يكون معدناً لقوة الإدراك فهذه مقدمات ثلاثة:

المقدمة الأولى: وهو أن الدماغ منبت العصب فالدليل عليه أن الأعصاب الكبيرة إنما يوجد في الدماغ وأما القلب فلا يوجد فيه إلا عصبه صغيرة وإذا كان كذلك وجب أن يكون الدماغ منبتاً للأعصاب.

أما المقدمة الثانية: وهي أن الأعصاب آلات الحس والحركة، والدليل عليه أنك إذا كشفت عن عصبه وشددتها وجدت ما كان أسفل من موضع الشد فإنه يبطل عنه قوة الحس والحركة وهذا يدل على (أنه)⁽²⁾ آلة الحس والحركة والغضب.

أما المقدمة الثالثة: وهي أنه لما كان الدماغ منبتاً للحس والحركة وجب أن يكون معدناً لهما فالدليل عليه أنه إذا كان قوة الحس والحركة إنما يحصلان من الدماغ إلى جميع أطراف البدن بواسطة هذه الأعصاب النابتة من الدماغ ثبت أن المعدن والمنبع لهذه القوة هو الدماغ.

واعلم أن أصحاب أرسطاطاليس أجابوا عن هذه الحجة من وجهين:

الأول: قالوا لا نسلم أن الدماغ منبت العصب أما دليل جالينوس على ذلك هو أن الأعصاب عند الدماغ كثيرة وليس في القلب إلا عصبه صغيرة فقد أجابوا عنه من وجهين:

(1) في المخطوط (وجهه).

(2) على أنه في المخطوط (على أن).

الأول: أن هذه المقدمة الواحدة غير منتجة للمقصود بل لا بد من ضم مقدمة أخرى إليها وهي أن القوة والكثرة إنما تكونان عند المبدأ والضعف والقلّة عند غير المبدأ إلا أن هذه المقدمة غير برهانية بل هي منقوضة من وجوه:

الأول: إن العصبية المحرّفة تكون دقيقة عند المنبت فإذا دخل الموضع الذي تتكون الحدة فتغلظ تلك العصبية وتتسع وهذا نقض على هذه المقدمة.

الثاني: إن الحبة التي منها يتولد ساق الشجرة تكون أصغر من ساق الشجرة فلم لا يجوز أن تكون العصبية الصغيرة التي في القلب تكون كالحبة التي منها اتسعت الأعصاب الكثيرة في الدماغ.

الثالث: لو صح دليل جالينوس لوجب أن يقال أن سيد العروق والضوارب هي [بلنجة]⁽¹⁾ الشبيهة بالشبكة التي في الدماغ لا القلب لأن في تلك العروق من العروق الضوارب عدداً لا يحصى وهو في غاية الشبهة بعروق الشجرة.

الرابع: من الجواب سلمنا أن الكثرة والقوة لا تحصلان إلا عند المبدأ لكنه لا نزاع أن القلب منبت الشرايين ثم إن أجرام الشرايين من جنس أجرام الأعصاب فيمكن أن لا تنبت الأعصاب منها، إنما قلنا أن العروق متساوية في هذه الصفات والأحوال، فعلمنا أن العروق والأعصاب من جنس الأعصاب وذلك لأن أجرام العروق تنفث وتنقسم إلى الشظايا اللينة لا حس لها وهي أبيض لديه عديمة الدم صلبة غير حساسة في نفسها لأنك إذا سددت العصبه برباط سداً قوياً صار مما هو أسفل من موضع السد عديم الحس، وذلك يدل على أن العصب غير حساس في نصيبه وإنما يجري إليه الحس من موضع آخر فثبت أن العروق والأعصاب متشاركة في هذه الصفات والأحوال فعلمنا أن العروق والأعصاب من جوهر واحد، وإذا ثبت هذا فنقول: لم لا يجوز أن يقال أن هذه العروق والضوارب لما تقسمت وتشعبت ودقت وصغرت ونفذت في الدماغ التفت بعضها ببعض وانضمت أجزاءهما واتصلت فصارت على شكل الأعصاب. وتحقيق القول فيه أن هذه الشرايين حين ما انفصلت عن القلب كان يحتاج إليها لتكون حاملة للدم والروح إلى جوهر الدماغ فلما صغرت ونفذت في جوهر الدماغ وحصل هذا المطلوب حصل الاستغناء عنها فلا جرم صرفت إلى غرض

(1) (بلنجة) كذا في المخطوط.

آخر وهو أن أزيل عنه وصف التجويف وانضمت تلك الشظايا بعضها إلى بعض وصارت على أشكال الأعصاب فبهذا الطريق صارت العروق أعصاباً، ولما كان منبت العروق هو القلب لا جرم كان منبت الأعصاب أيضاً هو القلب. بهذا الطريق أجاب جالينوس عن هذا الكلام من وجهين:

الأول: قال الدليل على أن الأعصاب ليست من جنس العروق وجوه:

الأول: أن الشرايين ناقصة والأعصاب ليست بناقصة.

الثاني: أن الشرايين مجوفة والأعصاب ليست مجوفة إلا القليل.

الثالث: أن الشرايين محتوية على الدم بدليل أنها إذا نفثت حكمت ذلك القدر على صاحبه من انفجار الدم أمراً صعباً والعصب كله لا دم له.

الرابع: أن الشرايين مؤلفة من طبعين أحدهما تنحل إلى أجزاء ذاهبة في العرض على الاستدارة، والأخرى تنحل إلى أجزاء تذهب على الاستقامة في الطول، وأما العصبه فهي تنحل إلى ليف أبيض عديم الدم ذاهب على الاستقامة في الطول.

الخامس: إنك إذا سددت العصبه حصل عدم الحس والحركة الإرادية ولا يبطل منه حركة النبض، فإن سددت الشريان بطل النبض ولم تبطل الحس والحركة.

السادس: إن العصب (يتوقف عن)⁽¹⁾ فعله كثيراً والشريان فعله دائم فثبت بهذه الوجوه أن الشرايين ليست من جنس العصبات.

والوجه الثاني: من الجواب عن هذا الكلام، قال: إن أصل الشريان المتولد من القلب ينقسم إلى قسمين: قسم يصعد إلى جانب الرأس وقسم ينزل إلى أسفل البدن، والقسم النازل إلى السفلى لا شك أنه ينقسم ويتفرق إلى العروق الدقاق ثم إنها بعد دقتها لم تصر أعصاباً فوجب أن يكون الحال كذلك في الشرايين الداخلة في الدماغ.

أجاب أصحاب أرسطاطاليس فقالوا: أما الجواب الأول فهو ضعيف لأن الصفات المذكورة للشرايين إنما تكون باقية قبل نفوذها في جوهر الدماغ أما بعد

(1) (يتوقف عن فعله) زيادة يقتضيها السياق.

نفوذها في جوهر الدماغ لم قلتُم أن هذه الصفات تبقى؟ والذي يدل عليه أن الروح الدماغية لا شك أنه كان متولداً في القلب ثم إنه تصاعد من القلب وبقي في النسيجة المتولدة تحت الدماغ مرة ثم إنه ينفذ في الدماغ فتحدث له حال كونه في الدماغ أحوال في صفات ما كانت حاصلة في القلب. فلم لا يجوز أن يكون الحال في الشرايين كذلك وهو أن الصفات المذكورة كانت حاصلة لها قبل هذه في جرم الدماغ وتقسّمها وتصغرها في الغاية أثر فيهما جرم الدماغ وقلبها على طباعها، فصارت في الصورة والخلقة شيئاً آخر فهذا الاحتمال لا يبطل بما ذكره جالينوس.

وأما جوابه الثاني فهو أيضاً ضعيف لأن الروح القلبية كما صعد إلى الرأس في الشرايين الصغيرة [نزل] إلى أسفل البدن في الشرايين الصغيرة، ثم إن الجزء الصاعد إلى الرأس تغير عن حالته بسبب اختلاطه بجرم الدماغ والجزء النازل، فهذا تمام الكلام على حجة جالينوس على أن الدماغ منبت العصب.

واحتج أرسطاطاليس على أن منبت العصب هو القلب فقال: الحركة الإرادية لا بد وأن يكون بالة صلبة قوية والدماغ ليس لجرمه شيء من الصلابة والقوة، وأما القلب ففيه أنواع من الصلابة منها: أن لحمه قوي وحركته، ولا بد وأن يكون أقوى جرماً وإذا كان كذلك كان جعل القلب منبتاً للأعصاب التي هي الآلات للحركات القوية أولى من جعل الدماغ منبتاً لها.

أجاب جالينوس عنه من وجهين:

الأول: بنى كلامه على المقدمة القياسية، والحس دلّ على أن المنبت هو الدماغ والقياس المعارض للحس لا تلتفت إليه.

والثاني: أن المتولي لتحريك الأعضاء ليس هو العصب فقط بل العضلات مركبة من الأعصاب والرباطات والأغشية واللحوم، وهي مستندة إلى الأعصاب والأعصاب يفيدها الحس والقوة على الحركة وأما ما يختلط بها من الرباطات والأغشية فيفيدها القوة والشدة والأمن من الانقطاع وعلى هذا التقدير لا يمنع كون الدماغ منبتاً للأعصاب.

أجاب أصحاب أرسطاطاليس عن الأول بأن الحس والحركة لم لا [تدلان]⁽¹⁾ على كثرة الأعصاب وقوتها عند الدماغ، وقد بينا أن هذا القدر لا يدل على كون الدماغ منبثاً للأعصاب، وأما الثاني فضعيف أيضاً لأن جالينوس استدل بغلظة العصب وكثرته على تولده منه وأرسطاطاليس عارض هذا فقال: إن كان هذا الوجه يدل على قولكم كون الدماغ لنا والعصب قوياً يمنع من تولده منه بل يكون العصب قوياً صلباً مع كون القلب قوياً صلباً يدل على كون العصب نابثاً من القلب فسقط كلام جالينوس بالكلية، والله أعلم.

النوع الثاني: من الجواب عن شبهة جالينوس:

سلمنا أن الدماغ منبت العصب الذي هو آلة الحس والحركة، لكن لم قلتم أنه يلزم من هذا كون الدماغ معدناً لقوة الحس والحركة بيانه أنه لا يبعد أن تكون قوة الحس من القلب إلا أن الدماغ معدن القوة يرسل إلى القلب آلة نابثة منه لتستفيد بتلك الآلة قوة الحس والحركة من القلب فإذا كان هذا الاحتمال قائماً سقط كلام جالينوس، والله أعلم.

الحجة الثانية لجالينوس: على أن معدن القوة المدركة هو القلب: وهذه الحجة أحسن دلائله أنه لو كان قوة الحس والحركة ينفذ من القلب إلى الدماغ لكننا إذا شدنا على العصبية بخيط شداً قوياً وجب أن يبقى الحس والحركة في الجانب الذي يلي القلب وأن يبطلا من الجانب الذي يلي الرأس، لكن الأمر بالضد فعلنا أن قوة الحس والحركة يجري من الدماغ إلى القلب ولا يجري من القلب إلى الدماغ وهذه الحجة لا يحتاج فيها إلى المقدمات الكثيرة المذكورة في الحجة الأولى.

والجواب لم لا يجوز أن يقال الروح والقلب يكونان في غاية الحرارة فإذا كان بينه وبين الدماغ منفذ مفتوح وصل تبريد الدماغ إليه فاعتدل واستعدّ بقبول قوة الحس والحركة فأما إذا انسد المنفذ انقطع عنه تبريد الدماغ فلا جرم لم يبق مستعداً لقبول الحس والحركة، فتبطل هذه القوة من الجانب الذي يلي القلب وإنما لم يبطل من الجانب الذي يلي الرأس لأن الشرايين في الدماغ كثيرة جداً وكلها مؤدية إليه قوة

(1) تدلان: في المخطوط [تدلا].

الحس والحركة من جسم لطيف نافذ في الأعضاء هو الروح، وإذا كان كذلك فالدماغ لكونه مبدءاً لهذا الروح أولى من القلب وذلك لأننا نجد في الدماغ مواضع خالية. وأما القلب فليس كذلك فإن التجويف الأيمن منه مملوء دماً أما [شبهه] في التجويف الأيسر فإنه يعتقد فيه أنه مملوء من الروح. قال جالينوس: وليس الأمر كذلك لأن القلب إذا كشف عنه وأبرز من غير أن ينفث ويخرق أغشيته لم يمت الحيوان بسبب ذلك حتى إنه يمكنك أن تلبث مدة طويلة تلمسه بيدك وتنظر إليه بعينيك وهو مكشوف فتعرف كيف ينبض وتعلم أن نبضه عند ذلك كما لم يزل ينبض قبل أن تكشف عنه ولكن بشرط أن يقع هذا التشريح في موضع لا يكون هواه بارداً لئلا يبرد القلب فإنه لو برد القلب صار النبض حينئذ ضعيفاً بطيئاً متقارباً إذا عرفت هذا فنقول: إذا ثقبنا التجويف الأيسر في هذه سال في الحال دم ولو كان التجويف مملوءاً روحاً لوجب أن لا يسيل منه ألبة دم ولو كان التجويف هذا في بعضه روح وفي بعضه دم لوجب أن يخرج الروح أولاً ثم يسيل الدم بعده، وكان يجب أن لا يسيل الدم في الحال على هذا التقدير فلما سال الدم في الحال علمنا أن التجويف الأيسر مملوء من الدم وأيضاً الحيوان الذي مات تجد في التجويف الأيسر من تجويفي قلبه علق الدم، وأما الدماغ فإن جرمه مزرد فلا يمتنع أن يحصل في تلك الغضون أجزاء الروح.

والجواب: هذه الحجة في غاية الضعف وذلك لأن هذا الكلام إن صح فهو يقتضي أن لا يكون في القلب روح أصلاً، وجالينوس لا ينازع في كون القلب معدناً للأرواح الحيوانية ويسلم أن الروح الحيواني يصعد من القلب إلى الدماغ ويصير هناك روحاً نفسانياً.

الحجة الثالثة لجالينوس: أن العقل أشرف القوى فيكون مكانه أشرف وأشرف الأمكنة أعلاها، فوجب أن يكون مكان العقل هو الدماغ وهو بمنزلة الملك العظيم الذي يسكن القصر العالي وأيضاً الحواس محيطة بالرأس كأنها خدم الدماغ واقفة حوله على مراتبها. وأيضاً محل الرأس من البدن محل السماء من العالم وكما أن السماء منزل الروحانيات فكذا الدماغ وجب أن يكون مسكناً للعقل.

والجواب: إن ما ذكرناه من البراهين لا تعارضه هذه الإقناعات فهذا آخر الكلام المنقح في هذه المسألة وكنت قد طالعت كتاب أداي بقراط وأفلاطون وهو كتاب نفيس والمقصود منه هذه المسألة فتعبت في انتخابه وضممت إليه أشياء كثيرة من

المعقولات ثم خفت من أن يضيع ذلك فكتبت في هذا المكان لثلا يضيع، وبالله التوفيق.

المسألة الثانية: في شرح أحوال القلب والذي يدل على شرف القلب وجوه:

الأول: أن المقصود من خلق الإنسان اشتغاله بمعرفة الله تعالى وخدمته وذلك لأنه تعالى قال: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ (٥١) ﴿فَبَيَّنَ أَن الْمَقْصُودَ مِنَ الْخَلْقِ هُوَ الْعِبَادَةُ، ثُمَّ قَالَ فِي آيَةٍ أُخْرَى: الْمَقْصُودُ مِنَ الْعِبَادَةِ هُوَ الْمَعْرِفَةُ إِذْ قَالَ تَعَالَى لِمُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَأَقِمْ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾ وقال في آية أخرى المقصود من العبادة الإخلاص قوله تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ فظهر أن لب القلب ومقصود المقصود إنما هو معرفة الله تعالى، ثم إنك قد عرفت أن محل هذه المعرفة والإخلاص هو القلب فحيثُ ظهر أن المقصود من خلق العالم هو القلب.

الحجة الثانية: أنه ثبت أن أول ما خلق الله تعالى جوهرة ثم نظر إليها بعين الهيئة فصارت ماءً ثم سلط الحرارة عليها فارتفع منها زبد وعلاه دخان فخلق الأرض من الزبد والسموات من الدخان، فنقول: أنه تعالى خلق تلك الجوهرة شيئاً واحداً وسله من العدم إلى الوجود فكل واحد من المخلوقات فهو سلالة المعدومات ثم سل من هذا المخلوق الأرض لأنه قال تعالى: ﴿كَأَنَّا رَتْقًا فَفَنَّاهُمَا﴾ وهذا هو السلالة الثانية، ثم سل من الأرض قبضة آدم كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ﴾ وهذا هو السلالة الثالثة. ثم جعل القلب سريراً لمعرفته فظهرت تلك الحكمة المطلوبة في رابع السلالات ليعلم أنه الشيء المعظم من جميع المخلوقات، وعند هذا ظهر أن جسم الإنسان منقسم إلى قسمين: إلى الهيكل الظاهر وإلى المقنعة الباطنة وهي القلب الذي هو سرير معرفة الله تعالى، فالقلب تبع للهيكل في الصورة، والهيكل الظاهر تبع للقلب في المعنى ولما جعل الهيكل الظاهر تبعاً للمضغة الباطنة علم أنك ما خلقت لأجل هذا الظاهر بل لأجل أن يطلب من هذا الظاهر باطناً، ومن هذا الشاهد غائباً ومن هذا المحسوس معقولاً فظهر بما قلنا أن المقصود الأصلي هو القلب وحصنه هو كل البدن وحصن البدن هو كل الأرض وحصن الأرض هو كل السموات وحصن السموات هو عالم الممكنات والكل مسخر في قبضة قدرته ونفاذ إلهيته. والشيء يكون اسماً للشيء الذي نسبته إلى غير هذه المضغة.

إذا عرفت هذا فنقول: القلب له في القرآن اسمان: أحدهما القلب والثاني الفؤاد، قال تعالى: ﴿كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ﴾ ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾ وقال: ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ وقال: ﴿وَأَفْنَدْتَهُمْ هَوَاءً﴾ وقال: ﴿نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ﴾ ﴿الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْآفَاقَةِ﴾.

ثم نقول: أنه يحتمل أن يكون الفؤاد اسماً لجميع هذه المضغة والقلب يكون اسماً لجزء مميز محسوس منه يسلك فيه إلى كل هذه المضغة كنسبة العين إلى الهيكل الظاهر كنسبة النقطة النازرة إلى العين وتلك النقطة هي المسماة بسويداء القلب، فهذه السويداء بالنسبة إلى العين الباطنة كسواد العين بالنسبة إلى العين الظاهرة والسبب في أن الأبصار الظاهرة يحصل بالسواد والبصيرة الباطنة يحصل بالسويداء وجهان:

الأول: أن الإبصار يجري مجرى النور والسواد من جنس الظلمة فالسواد والإبصار متضادان وإظهار أحد الضدين من الآخر دل على القدرة والحكمة.

الثاني: لأن يكون الانتهاء على وفق الابتداء أو كما أن في الابتداء أظهر نور الوجود من ظلمات العدم بإيجاد الحق ﷻ فكذلك في الانتهاء ظهر نور البصر والبصيرة من ظلمات سواد العين وسويداء القلب ليكون المبدأ والغاية آيتين بقرائن الأحوال وشواهد المقال على تحقيق قوله تعالى: ﴿فَأَلْقَ الْأَصْبَاحَ﴾ وعند هذا ظهر ترتيب عجيب، أما الظاهر فالعين ثم النقطة النازرة ثم النور الباصر الموجود في النقطة الظاهرة. وأما الباطن فالفؤاد وهو اسم لتمام هذه المضغة ثم القلب ثم النقطة النازرة وهو سويداء القلب ثم نور البصيرة. إذا عرفت هذا فنقول: أن الإبصار في عالم الظاهر يتوقف على شرائط وعمل هي نفسها معتبرة في إدراك البصيرة.

الشرط الأول للإبصار: أن لا يكون المبصر في غاية الخفاء أما الذي في غاية الجلاء فكالشمس فإن العين تتحير فيها فلا تقدر على إبصارها على التمام والكمال، وإما الذي في غاية الخفاء فكالذرة فكذا للعقل مدركات هي في غاية الجلالة والعظمة ومدركات هي في غاية الخفاء والصغر، وأما الأشياء التي هي في غاية الجلال والإشراق فهي جلال الله وكبرياؤه ومنه عظمة الأرواح العالية المقدسة فنور سويداء القلب يحترق في هذه الحضرة فلا تصل إليها وإليه الإشارة بقول من قال: سبحان من احتجب عن العقل لشدة ظهوره واختفى عنها بكمال نوره.

وأما الذي في غاية الخفاء فكتفاصيل الأحوال وقوله: ﴿وَنُشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ فإن النطفة من حين ما تقع في الرحم إلى أن ينفصل الجنين لها في كل لحظة حالة وفي كل لحظة صفة إلا أن التفاوت بين كل لحظتين مما لا يصل إليه عقول البشر.

وأما جريان المحدثات فهو أنه تعالى لما ذكر من الحيوانات الأنعام قال: ﴿وَالْأَنْعَمَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنْفَعٌ﴾ ثم قال بعده: ﴿وَالْحَيْلَ وَالْإِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً﴾ ثم قال: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ والمعنى: أنه لا يمكنكم أن تحيطوا علماً بتفاصيل أحوال جميع الحيوانات لكثرتها واختلاف أحوالها بالجملة، فالعقول قاصرة عن معرفة الأوائل والأواخر ونظيره أن العقول متحيرة في مبدأ الخلق والإيجاد وفي منتهى الإعدام وإلا فتأمل العقول لا سبيل لها إلى معرفة الأزل والأبد، فإن كل ما سيحضره في ذهنه يكون متوسطاً بين الأزل والأبد ولو أنه بقي إلى قيام الساعة يتقدم إلى ما قبل ويتأخر إلى ما بعد لم ير نفسه إلا في المتوسط بين الأزل والأبد منزهاً عن لواحق الأنظار في غلائق الأفكار، وتمام الكلام سيأتي في باب الصفات في تفسير العدم والبقاء وشرح كونه أولاً وآخرأ إن شاء الله.

الشرط الثاني: أن المبصر إذا كان حاضراً بحيث لم يحرك الإنسان حدقته من جانب إلى جانب تحريكات كثيرة فإنه لا يرى المبصر، فكذا الفؤاد ما لم يحرك عينه من معقول إلى معقول لا يتمكن من إبطار المطلوب وتلك التحريكات هي المسماة بالفكر والروية والنظر وكما أن نظر العين عبارة عن تقليب الحدقة من جهة إلى جهة طلباً لرؤية المرئي فكذا نظر القلب عبارة عن تقليب حدقة القلب من جانب إلى جانب طلباً لإدراك المعقول.

الشرط الثالث: إن القوة الباصرة لا يمكنها إدراك المبصرات إلا عند صيرورة الهواء مضيئاً بسبب طلوع الأشياء النيرة وكذا العقل لا يقدر على الإبصار إلا عند طلوع الأشياء النيرة، ثم نيرات العالم الجسماني أربعة: الشمس والقمر والكواكب والنار، وأعظمها الشمس ثم القمر ثم الكوكب ثم النار، فكذلك نيرات العالم الروحاني أربعة:

أولها: نور جلال الله كما قال تعالى: ﴿وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾ وهي بمنزلة الشمس وكما لا تستطيع أبصار الخفافيش مطالعة قرص الشمس فكذلك لا تستطيع الأرواح البشرية مطالعة نور الجلال وهذه المرتبة منزلة الشمس.

والمرتبة الثانية: أنوار الأرواح العلوية الروحانية والكروبية كما قال تعالى: ﴿يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ وقال: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ﴾ (١٦٦) عَلَى قَلْبِكَ وَأَكابر الأنبياء والصديقين هم الذين يطبقون مطالعة هذه الأنوار، قال تعالى في واقعة موسى: ﴿وَأَنْتُمْ هُوَ رَبُّ الشَّعْرَى﴾ (١٦٧) وقال في واقعة الخليل: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ أَيْلٌ رَمَا كَوْكَبًا﴾ وهذه المرتبة منزلة القمر، وكما أن القمر تارة يكون بدرًا يضيء العالم إضاءة كاملة وتارة يكون هلالاً دقيقاً يظهر قليلاً قليلاً ثم يخفي فكذا الأرواح العلوية قد تكون عظيمة الإضاءة والإنارة كقوله تعالى: ﴿وَمَنْ عِنْدُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ﴾ وقوله: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ وتارة يكون كالهلال الضعيف وهو قوله: ﴿وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَعَتُهُمْ شَيْئًا﴾.

والمرتبة الثالثة: أنوار الأرواح السفلية وهم الصديقون الملازمون لغيبة جلال الله المعتكفون في حضائر قدس الله تعالى استنارت أرواحهم فأناروا أرواح غيرهم، وهذه المرتبة بمنزلة الكواكب فكما أن الكواكب قد تكون في العظم الأول درجة متألثة كما قال تعالى: ﴿كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرٍ مُبَارَكَةٍ﴾ وقد تكون ضعيفة جداً كالسها وأمثاله فكذا الأرواح السفلية منها ما يكون قوية ومراتبها أربعة:

أولها: الذين يكونون في العظم الأول وهو روح الكليم والخليل والحييب فإن أرواح الخلق يهتدى بأنوار هذه الأرواح السفلية لأنها أرواح قدسية قريبة الدرجة من الأرواح العلوية ولهذا قال تعالى: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ﴾ وكما أن الفائدة في الكواكب هي قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَكُمُ الْوَقْنَ وَالْجَمِّ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ فكذا دعوة الأنبياء عليهم السلام أعلام يهتدى بها في ظلمات بر السموات وبحر الصغريات والشبهات قال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾.

وثانيها: الذين يكونون في العظم الثاني وهي أرواح أولي العزم كما قال تعالى: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾.

وثالثها: أرواح المرسلين وهم ثلاثمائة وثلاثة عشر وهؤلاء هم الذين يكونون في العظم الثالث من الكواكب.

ورابعها: أرواح جملة الأنبياء وهم كما يقال ألف وأربعة وعشرون ألفاً. وهؤلاء هم الذين يكونون في مرتبة العظم الرابع من الكواكب، ثم بعد هذا مراتب المؤمنين وهي ثلاث: السابقون والمقتصدون والظالمون كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ

أَصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ إِذِنَ اللَّهُ فَالسَّابِقُونَ هُمُ الْأَوْلِيَاءُ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿أَلَا إِنَّكَ أَوْلِيَاءُ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ والمقتصدون هم العلماء قال تعالى: ﴿لَعَلَّهُمُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾ والظالمون هم العوام ولكل واحد من هذه الأرواح أثر ونور اتصلت كالمرايا المتحاذية وتنعكس أنوار بعضها إلى البعض فيصير كل واحد منهما مكمل للآخر من وجه ومستكملة به من وجه ولهذا السبب كان أحد مقامات الصديقين الحب في الله.

المرتبة الرابعة: من نيرات العالم الروحاني العقل ومرتبته مرتبة النار في عالم الجسيمات فاعلم أن نور العقل له عيوب كثيرة كما أن نور النار له عيوب كثيرة.

فالأول: أن نور النار ممزوج بدخان كثيرة يسود الثوب ويجفف الدماغ وكذا نور الدماغ ممزوج بدخان الشبهات وذلك الدخان تارة يسود ثوب العبودية تلطخه التشبيه والتعطيل وأخرى يجفف الدماغ البشرية فيلقى صاحبه في وهم الحلول والاتحاد.

والثاني: أن نور السراج فيه إشراق وفيه إحراق وكذا نور العقل فيه إشراق وفيه إحراق أما إشراقه فهو التفكير في الخلق وأما إحراقه فهو التفكير في جلال الله تعالى فلهذا السبب قال ﷺ: «تفكروا في الخلق ولا تفكروا في الخالق».

الثالث: إن نور السراج ينطفئ بأدنى ريح وكذا نور سراج التعقل ينطفئ بأدنى شبهة فلهذا السبب قال تعالى لمحمد ﷺ: ﴿وَلَوْلَا أَنْ تُبَشِّرَكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا﴾ وقال الخليل: ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ﴾ وقال يوسف الصديق: ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَالْحَقِيقِي بِالصِّدِّيقِينَ﴾ وقال سليمان: ﴿وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾ وقال الكليم: ﴿رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي﴾ وقال عيسى عليه السلام: ﴿رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ﴾ وتلك المائدة مائدة الهداية والمعرفة.

الرابع: إن السراج إنما يظهر نوره إذا وضع في بيت صغير، فأما إذا وضع في صحراء واسعة فإنه يقل ضوءه، وكذا سراج العقل إنما يظهر نوره إذا وضع في بيت البدن كما قال: ﴿وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ فإن هذا البيت صغير مختصر ألا ترى أن سراج العقل لما وضع في ميدان الأرواح انطفأ ولم يظهر له لمعان وشروق كما قال تعالى: ﴿وَسْتَلُونَا عَنْ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾.

فإذا كان حاله في ميدان الأرواح لا يظهر نوره فاعرف كيف يكون حاله في صحراء جلال الأنوار الصمدية وفضاء كمال الأسرار الإلهية تقدست عن أن يكون لها بداية ونهاية أو مقطع وغاية.

والخامس: ظهور نور السراج مشروط بأن يكون بينه وبين قرص الشمس حائل أما لو وضع في مقابلة قرص الشمس انطفأ، فكذا العقل إنما يضيء فيما وراء حجاب الغيب وعالم أنوار الصمدية فأما إذا أزيل الحجاب وتجلت الأنوار انطفأ نور العقل، ولهذا قال لموسى عليه السلام: ﴿فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طَوًى﴾ فقله: اخلع نعليك إشارة إلى تلاشي قوة العقل واضمحلالها وقوله: إنك بالوادي المقدس طوى إشارة إلى تجلي لمعان أنوار العظمة والكبرياء.

السادس: نور السراج وإن طال بقاؤه ولكنه بالآخر ينطفئ وإن استمر، لكنه إذا تطلع الشمس فتبطل ضوؤه لا محالة فكذا نور سراج العقل إما أن ينطفئ لطريان الغفلات والشهوات أو أن يبقى إلى آخر الأمر لكنه إذا انقضى ليل الحياة الدنيوية فتجلى نهار عالم الآخرة وانكشفت السرائر وتجلت الضمائر لم يبق لسراج العقل نور ولا قوة ألبتة فهذا هو سراج نيرات عالم الروحانيات.

الشرط الرابع: كما أن انتفاع البصر بنيرات عالم الجسميات يتوقف على أمور فكذلك انتفاع البصيرة بنيرات عالم الروحانيات يتوقف على مثل تلك الأمور.

ولا بد أن إبصار الأشياء ورؤيتها تختلف بالكمال والنقصان فتارة يرى الإنسان شيئاً رؤية تامة وتارة يراه رؤية ناقصة وسبب هذا التفاوت إما أن يكون عائداً إلى ذات القوة الباصرة أو إلى أمور خارجة عنها، فكذا إدراكات البصيرة قد يختلف بالكمال والنقصان وذلك التفاوت قد يكون بسبب عائد إلى ذات البصيرة وقد يكون بسبب أمور خارجة عنها، أما العائد إلى ذات البصيرة فهو على وجهين:

الأول: اختلاف جواهر الأرواح قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ وهذا يدل على أن أنوار هذه السبعة من معشر البشر وجنس الأنس مخصوص بمزيد القوة والجلال والرفعة فتارة تظهر آثار تلك القوة بالنبوة وتارة بالخلافة، قال تعالى في صفة عيسى عليه السلام: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا﴾ وقال في صفة محمد صلى الله عليه وآله: ﴿عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى﴾ ثم يرقى من تعليم الملك إلى تعليم الملك

فقال: ﴿الرَّحْمَنُ ۝ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ۝﴾ ثم انتقل من خطاب الغيبة إلى خطاب الحضور: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ وقال تعالى في حق جميع الأنبياء عليهم السلام على العموم: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ وقال ﷺ: «الأرواح جنود مجندة»⁽¹⁾ وقال ﷺ: «الأئمة من قريش»⁽²⁾ وهو إشارة إلى اختصاص هذه الشيعة بمزيد قوة نفسانية روحانية فلما لم تظهر أثر تلك القوة بالنبوة بعد محمد ﷺ فلا بدّ من ظهور أثرها بقوة الخلافة والرئاسة وكل ذلك يدل على اختلاف الأرواح في ماهيتها فمنها ما يكون في غاية الجلالة والقوة ومنها ما يكون في غاية الضعف وهذا الاستعداد الذاتي لا سبيل إلى تبديله ألّبتة.

الثاني: اختلاف جواهر الأرواح بسبب الصفات العرضية التي تقبل العلاج ومثاله في عالم الجسمانيات أنه قد يكون بصراً أضعف من بصر لا لأجل الخلقة الأصلية بل بسبب (مرض) قد عرض له فأورث ضعفه أو بسبب أنه استعمل كحلاً قوياً فأفاده ذلك الكحل في تلك الساعة زيادة قوة، فكذا الأرواح ربما تعرض لها عارض فيحصل فيه نوع من الكلال بسبب المعارض وإليه الإشارة. بقوله ﷺ: «وإنه ليغان على قلبي». وهذا النوع من التفاوت قد يطرأ وقد يزول، وأما التفاوت الحاصل بسبب الأمور الخارجية فهو أنواع:

السبب الأول: الاشتغال بغير الله ومثاله في عالم المحسوسات إن من شغل حقيقته بالنظر إلى شيء كان نظره إليه مانعاً له من إِبصار غيره ثم كلما كان التحديق إلى الأول أشد وأكمل كان الحرمان عن إِبصار الثاني أشد وأكمل، فكذا عالم الروحانيات على هذا القياس كلما كان اشتغال القلب بغير الله أشد وأكمل كان حرمانه عن الاطلاع على أنوار جلال الله أشد وأكمل ولهذا المعنى حكم تعالى بوقوع المنافاة بين الأمرين فقال: ﴿كَلَّا بَلْ يُحِبُّونَ الْعَالِيَةَ ۝ وَيَذَرُونَ الْآخِرَةَ﴾ وقال في آية أخرى: ﴿وَيُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾ وقال: ﴿وَإِنَّهُمْ لِحَبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ وقال: ﴿زَيْنٌ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ الشُّكُوفِ﴾ وقال ﷺ: «حب الدنيا رأس كل خطيئة» ثم إذا اتفقنا علمنا أنا كالمعذورين في حب الدنيا وكيف لا نحبها ونحن ما خلقنا إلا منها وإنما ارتضعنا من طعامها وإنما تربينا على ظهرها وإنما ألفنا وشاهدنا أحوالها ولو اتفق لبعض الخلق على سبيل القدرة

(1) رواه البخاري (3336) من حديث عائشة ومسلم (2638) من حديث أبي هريرة.

(2) رواه أحمد (3/ 129 و 183) وأبو داود الطيالسي (596).

اطلاع على شيء من الروحانيات فذلك إنما يكون بغير استحكام الألف بالدنيا فمع هذه الأسباب القوية كيف ينفك قلب الإنسان من محبة الدنيا إلى أنه ﷺ قال: «جبلت القلوب على حب من أحسن إليها وبغض من أساء إليها»⁽¹⁾ فانظر إلى الدنيا كم انتفعنا بطعامها وشرابها وأنهارها وأسحارها ولذاتها وطيباتها وإذا كان كذلك فلا محالة نكون مجبولين على حبها، فإذا عرفت هذا فنقول: كل من أحب شيئاً نظر إليه بكل عينيه ومن نظر إلى شيء بكل عينيه لم ير غيره، وأيضاً إذا كنت محباً لشيء عميت عن دونه معانيه وصرت مشتغلاً برؤية محاسنه وفوائده وأيضاً إذا استحكمت تلك المحبة امتلاً القلب منها والطرف إذا امتلاً من شيء لم يتسع لغيره فهذه قلوب لا يدخل فيها محبة الله تعالى وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَأَىٰ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ وقال تعالى: ﴿صُمُّ بُكْمٌ عُمَىٰ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ وذلك لأنه كانت قلوبهم مملوءة من حب الدنيا فما كانوا ينتفعون بما يرون ويسمعون ويتكلمون ثم إن هذه الحالة كلما كان دوامها أكثر كان استحكامها أشد وهو مرض القلب كما قال تعالى: ﴿فِي قُلُوبِهِمْ قَرَرٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا﴾ والمرض ما لم يكن مستحكماً فإنه يرجى علاجه فإذا استحكم وصار بحيث لا يقبل العلاج قرب من الموت وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ وبقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ وعند هذا يظهر أن الكل منه وأن الخير بيده والشر بتقديره وقضائه وها هنا سؤالان:

السؤال الأول: إذا استحكم مرض الجسم بحيث لا يرجى علاجه سقط الخطاب وإذا استحكم مرض القلب فلم لا يسقط الخطاب؟

الجواب: عدم سقوط الخطاب في هذه الحالة إنما كان حتى يعلم الإنسان قبل انتهائه إلى هذه الحالة أنه لو لم يشتغل بالعلاج قبل الانتهاء إلى هذه الحالة فإنه سيفضي إلى هذه الحالة، وعند انتهائه إلى هذه الحالة لا يمكنه العلاج عنه ولا يسقط عنه الخطاب أيضاً فلا جرم لأجل الخوف من هذه الحالة يشتغل بالتوبة وبالعلاج قبل الانتهاء إلى هذه الحالة، ثم إن هذه المرتبة لما لم يكن ممدودة كان هذا الخوف

(1) موضوع رواه أبو موسى المدني في جزء من إدراكه الحلال من أصحاب ابن فندة (150 - 151) وابن الأعرابي في المعجم (21/2 - 22) وابن عدي في الكامل (701/2) وأبو الشيخ في الأمثال (160) وأبو نعيم في الحلية (121/4) والخطيب في تاريخ بغداد (346 - 347) وابن الجوزي في العلل (29/2) والقضاعي في مدن الشهاب (600) والآفة من إسماعيل الخياط وهو من حديث عبد الله بن مسعود.

حاصلاً عند الإقدام على كل ما كان ذنباً وكانت التوبة حاصلة عند جميع الذنوب.

السؤال الثاني: إنكم ذكرتم أنا مجبولون على حب الدنيا وذكرتم أن حب الدنيا يورث الإعراض عن الآخرة ثم إنا مع ذلك أمرنا ببغض الدنيا وبحب الآخرة فكيف يجتمع هذا مع قوله تعالى: ﴿لَا يَكْلِفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ والجواب - والله أعلم - أنه يظهر منه أن العبد لا قدرة له على الوفاء بهذه الطاعة إلا بفضل المولى وكرمه وإعانه. بأن يجذبه من التوغل في حب الدنيا إلى حب المولى فلهذا السبب أمره الله تعالى أن يقول كل يوم مرات: إياك نعبد وإياك نستعين، وجاء في الأخبار المتواترة فضل عظيم في قول: لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

السؤال الثالث: أليس أن الدنيا أم حاضنة فما السبب في أن أوجب الله تعالى بغضها؟! الجواب: أن حبها مانع عن حب الله تعالى وهذا لأنه فرض بغض الأبوين الكافرين وعصيانهما عند دعوتهما الولد إلى الشرك، فقال تعالى: ﴿وَإِنْ جَهَدَاكَ عَلَىٰ أَنْ تُشْرِكَ بِـِىَ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا﴾.

السؤال الرابع: ما علامة رجحان حب المولى على حب الدنيا؟ الجواب: ترجيح المحبة على المحبة إنما يظهر بأحد أمرين:

أحدهما: قدر الحزن عند الفوات والثاني قدر السرور عند الوجدان. . . واعلم أنه ما لم يترجح حب الآخرة على حب الدنيا فلا إيمان، وإذا حصل الرجحان فلا يطيب الإيمان إلا عند زوال المعارض من جميع الوجوه وعلامة ذلك أن لا تخطر الدنيا بباله إلا عند الحاجة إليها كأنها شربة ماء قدرة استنجى بها.

السبب الثاني: لحصول التفاوت في هذه الأنوار الروحانية طيب الغذاء وخبثه قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الرُّسُلُ كُلُّوْا مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ وقال تعالى: ﴿وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبِيثَاتِ﴾ والسبب فيه أن الغذاء يصير جزءاً للبدن وللقلب ولا شك أن الشيء الذي يصير جزءاً للشيء يختلف حال ذلك الشيء بسبب اختلاف حال هذا الذي يصير جزءاً له، فاليست إن طيئته بالطين الكدر جاء كدراً وإن طيئته بالجص الأبيض جاء صافياً نورانياً، وإذا اختلف حال البدن باختلاف أحوال الأغذية لا جرم يختلف أحوال تلك الأنوار بسبب اختلاف حال البدن ألا ترى أن الماء الصافي يكون لونه لون الظرف والقارورة فثبت أن طيب الغذاء وخبثه سبب لاختلاف أحوال الأنوار الروحانية.

السبب الثالث: الأمكنة والأزمنة، أما الأمكنة فقوله تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا﴾ وقال: ﴿إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَنَيْنَا حَوْلَهُ﴾. والأزمنة قوله تعالى: ﴿فِي أَيَّامٍ نَّحْسَاتٍ﴾ وهذا يدل على أنها إذا كانت أيام رحمة كانت متصفة بالسعود أي يسعد فيها كل من يقدم فيها على عمل من الأعمال، وفي كلام أهل التصوف: الوقت سيف قاطع ولأرباب القلوب في هذه الكلمة كلمات، والذي يميل إليه قلبي أنه تعالى عين كل وقت لحادث فصار ذلك الوقت مربوطاً بذلك الحادث ترابط المشيئة الأزلية الذي لا يمكن دفعه وإبطاله، فإذا جاء ذلك الوقت جاء معه ذلك الحادث فكما أن السيف قاطع فالوقت بما يمضيه الحق ويجريه غالب وإذا كان الوقت الذي فيه يفتح الله رحمته متأخراً فلا تنفع الجد والجهد في الزمان المتقدم... وسمعت بعض المشايخ قال: بعث الشيخ أبو سعيد بن أبي الخير رحمة الله عليه واحداً إلى النهر ليجيئه بماء يتوضأ به وكان ينتظر في الرجوع، فقال الشيخ: ذلك الماء الذي يمكننا أن نتوضأ به بعد ما خرج من النهر.

السبب الرابع: وهو أقوى الأسباب العلوية والهداية الإلهية ولا يتم جميع الأسباب إلا بهذا المعنى قال الله تعالى: ﴿يَجْتَنِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ﴾ وقال: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ وقال: ﴿أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِّن رَّبِّهِ﴾ فهذه الأحوال إشارة إلى مبدأ هذه الدرجة وأما وسطها فقوله تعالى: ﴿فَقَرُّوا إِلَى اللَّهِ﴾ ونهايتها قوله: ﴿قُلِ اللَّهُ تَعَالَى ذَرَهُمْ فِي حَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ وأيضاً الإشارة إلى أوله: ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ﴾ والإشارة إلى وسطه: ﴿وَأَعْفُ عَنَّا وَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا﴾ والإشارة إلى آخره: ﴿أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا﴾ ثم إذا وصل القلب إلى هذه الدرجة يكون في عالم القلوب كالشمس في عالم الأفلاك فعند هذا يبقى مسخراً في أنوار عالم الجلال كما قال: ﴿وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِي﴾ ثم صارت هذه الروح ينبوعاً لفيض الأنوار على أسرار الأرواح. وبعد هذا درجة أصحاب اليمين كما قال: ﴿وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُصْحَبِ الْيَمِينِ ﴿٩﴾ فَسَلَّمَ لَكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ﴾ وبعد هذا درجات لا يصل إليها الخيال ولا يعبر عنها المقال ومن أرادها فليكن من الواصلين إلى العين لا من السامعين إلى الأثر.

الشرط الخامس للإبصار: اعلم أن الجنين حين ما يكون في رحم الأم في أول ما يخلق الله عينيه تكون الجفنان ملتصقتين ثم بعد زمان يفصل الله برفع أحد الجفنين

عن الآخر، إلا أن الجفنين تكونان منطقتين فإذا انفصل عن بطن الأم يفتح العينين في بعض الأوقات إلا أنه في أكثر الأوقات يغمضها ويكون نائماً وعند فتح العينين يكون جاهلاً بأمه والأم مع ذلك تراعي مصالحه لعلمها بأنه ما حان أو أن قدرته على التمييز بين المحسن والمسيء، ثم لا يزال الطفل ينظر إليها إلى أن يميز بين الأم وغيرها ثم إذا واطب على النظر ألف النظر والإبصار حتى يصير بحيث لا يمكنه أن لا ينظر إلى شيء. إذا عرفت هذه المراتب في العين الظاهرة عرفت مثلها في العين الباطنة ففي أول الأمر يكون عين القلب منطبقاً ثم ينفتح ولكنه لا يقدر على أن يميز بين الخير والشر ثم لا يزال ينظر بعين عقله إلى أن يصير بحيث يدرك الفرق بين المحسن والمسيء فيعرف أن المحسن هو الحق وأن ما سواه فهو سبب الضرر، ثم إذا واطب على هذا النظر صار بحيث لا يمكنه أن يصبر عن نظر العقل، وكما أن الأم تعذر الطفل في أول عمره عن التمييز بينها وبين غيرها، فكذا الحق هاهنا يُعذر الإنسان في أول عمره أن لا يعرف ربه وذلك سن ما قبل البلوغ، ثم إذا واطب على النظر في أفعال الله وآثار حكمته في مخلوقاته حصل له عشق ومحبة مع هذا النظر فلا يرى شيئاً بعقله إلا وتنتقل منه إلى مبدئه وغايته، أما المبدأ فهو قدرة الحق وأما الغاية فهي حكمة الحق فيصير بحيث لا يرى شيئاً إلا ويرى الله بعده وحينئذ يستنير السر كما يستنير القمر بمقابلة الشمس، والقلب في هذا المقام قد استلذ بالنظر وألفه فلا جرم [أن] يقلب الفؤاد والقلب حذقه من منظور إلى منظور وقد كان للقلب قبل ذلك عين واحدة وأما الآن فقد صارت كل ذرة من ذرات المبدعات والكائنات عيناً للقلب وذلك لأن العالم كله يصير مرآة للقلب والمرآة للعين بمنزلة بصر زائد فإنه يرى بها ما لا يراه بدونها فعند ذلك يصير كل ذرة من ذرات الممكنات عيناً له، والعين ينبوع النور فيصير كل العالم ينبوع النور في حقه، وإذا اتصلت أنوار العالم صار كله نوراً قال تعالى في هؤلاء: ﴿يَسْعَىٰ نُوْرُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ﴾ وفي الحديث: «إِنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ يَرَوْنَ أَهْلَ الْعَالَمِينَ كَمَا يَرَوْنَ الْكَوْكَبَ الدَّرِّيَّ فِي السَّمَاءِ وَإِنَّ أَبَا بَكْرٍ وَعُمَرُ مِنْهُمْ»⁽¹⁾ وبالله التوفيق.

(1) رواه البخاري (3256) ومسلم (2831) من حديث ابن سعيد.